زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: هيلكَا يناير
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع: 2018/7382
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

هيلكَا يناير

زهير أبو سعد

إهداء

إلى عائلتي في النمسا، تلك البراعم النقية
التي أوقفت إنحنائي أمام أعاصير الحياة ..

محمود عبد الرحمن ، ألكسندر ، تاليا ..

نُقطَة الضَوءِ ..

في لَيلَة رَأسِ السَنة ..

كُلّ شَيءٍ حَولكَ يَزَدَادُ بَرِيقاً ..

إنَكَ في مَدَينة زَفيرُهَا ثَانِي أُكسِيد المُوسِيقى ..

خُيوط منَ الأُمنِيات مُعَلقة على أطَرافِ المَساء ، فالنُجوم هُنَا لَيسَ لَهَا خُطى و لا آثارٍ لِتَستَدلَ بِهَا إلى المَاضِي ، نُجومٌ خَائِنة قَلبت مَوازِين كُلَ رأسِ عِيد ..

إنهُ العيد الخَامِس و السَبعينَ لآخَر شَيبة على رَأسِ أُنثَى أباهَا شَجرةَ عَيدٍ ، و أُمهُا زينة .. تِلكَ الزينة التي كَانت تَحلُم بِهَا ، و حَتى الأحلام خَانتهَا و ألقت بِهَا إلى بُؤسِ يَومٍ قَد تَراكَم على حَافتهِ ثُلوج العَيد ..

أيُّ عِيدٍ هَذا يا تُرى !؟ ..

إنهُ يَوم بَهجة كمَا قَالوا لِي قَبلَ خَمسة و سَبعِينَ سَنة ..

كَانت هَذهِ المَدِينة عِبارة عَن رُكَام و رُفات مُكَوَم من أمَل ، و لَكن أينَ هُوَ ذَاكَ الأمل يا صَاح !! ..

نَعم أمل ..

كَلمة مُكونة من أحرفٍ ثُلاثِيةِ الوَجع ، و كَأنَ لكُل حَرفٍ سَوطاً يَجلدُ خَوفَكَ بَينَ فَينة و فَينة ، على ظُلمَةِ هَذهِ الكَلمة تَبنِي عَليهَا

نُورك ، و لَكن كَيفَ لو كَانَ نُورُكَ مَقصوص الأضواءِ .. كَأن تَسقُط في هَذا العَالمِ سَهواً ، و تَرسُوا بِكَ الثُلوج على بَابِ مأوى لليتَامى ، و تَعيش في زَمنٍ خَرجَ أهلهُ منَ تَحتِ الحُطَام ، أنتَ الذِي ألقى بِكَ الخَرابُ إلى مَكَانٍ لَيسَ بِمكَانِكَ ، لَقد فُرِضَ عَليكَ أن تَكونَ هُنَا ، لَيسَ لأنكَ أنتَ أنتَ ..

بَل لأنَكَ أنتَ .. هُم ..

فَلسَفة لا يَفهَمهُا إلا مَن كَانَ وَحِيداً ..

تَعرفَ لمَا !؟ ..

طَبعاً لا تُرِيد أن تَعرف ! ، و لا يهمُكَ حَتى أن تَعرف ، لأنَكَ نُطفة من هَذهِ الجُيوشِ المنَوِية التي تنحدِرُ من صلبِ رَجُلٍ أفرغَ شَهوتهُ في جَوفِ أُنثَى ..

هَل تَذُكر بداية وُجودِكَ !؟ ..

كَم أنتَ تَعيس يا صَدِيقِي ، لأنَكَ كُنتَ مَزِيجاً منَ الأنزِيمَاتِ و البُروتِينَاتِ و الفركتوز ، سَوفَ أُذَكرُكَ بِأتعسِ لَحظة كُنتَ تَحبو بِهَا عَبرَ قَنَاتٍ ضَيقة ، مَدفوعَ الرَغبة ، سَرِيعَ الشَهوة لتِصِلَ إلى ذروةَ النَشوة ، و تَسقُطَ طَرِيحاً على سَرِيرِ بُويضة ..

هَذا المَكَان الدَافئ الذِي لم نجو منِهُ إلا من سَقطَ منهُ وَجعاً و لم تَكتَمِل مَلامِحهُ ، دَائِماً كُنتُ أكتُب للتَارِيخ ، بِأنَني بِحَاجة إلى

العَودة إلِيهِ ، لأنَ هَذهِ الزَاوِية منَ العَالم لا تُنَاسِبُنِي ، و لا تُشبه أُنُوثَتِي ، إنَ تِلكَ الأُنثَى التي دَاخِلي ، هي كُل يَومٍ تُوبِخنِي و تُؤنِبُ ضَمِيري ، كأنَ تَقول :

أعِيدونِي إلى ذَاكَ الرَحمِ الذي إنزَلقتُ منِهُ يَوماً ..

و لَكنَ صَاحِبة الرَحمِ لم أرَهَا ، و لم أعرفهَا ، و لم أرتَوِ من رُؤياهَا و لا للَحظَة ، لا أعَرف مَا الذِي دَفعهَا لأن تُلقِي بِي أمَامَ مَأوى الأيتَامِ ، و لم تَكتَفِ بِذَلكَ فَقط ، بَل لم تَمسَح الدِمَاء من وَجهِي ، و أنَا مُتأكِد بِأنهَا لم تَحتَضنني ، و حَتى نَوع القُمَاشِ الذِي طَوتنِي بِهِ ..

يا لهُ من قُمَاشٍ رَدِيء ..

بل إنهُ كِيسَ طَحِينٍ فَارِغٍ ، و حَولهُ رُذاذَ طَحَين ، في سَلَةِ العيد القَصَبِية ، كَانت تَبكِي تِلكَ الطِفلة التي لم تَرى أبوَيهَا ..

و لَكن الذَنبُ لَيسَ بِذنبِي !! ..

بِأي مَندِيلٍ سَوفَ أُجَفِفُ دُموعَ الطِفلة التي في دَاخِلي ، لم يَبقَ منَادِيل للكَذِب ، و لا حَتى أيَةِ حِيلة لأهمُسَ في قَلبِهَا بِأنَ هُنَاك بَصيص أملٍ ..

هَل تَعرف لما !؟ ..

لأنَ الأملَ كِذبة ، و الذِي قَالَ بِأنَ الدُنيا صَغيرة ، فَهو كَاذِبٌ بِإمتِياز ، و الذِي يَقول بِأنَ الجِبال تَلتقي فَهَذا أمرٌ مُحَال ، عِشتُ خمسَة و سَبعِينَ سَنة على بنزِين الأمل ، و لَكن لم أكُن أعلم بِأنَ هَذا النَوع من البنزِين سَوف يَحرِقُنِي ، و يَجعلني أُنثَى على حَافَةِ الوَرَق ، تَكتُبُ رَسائِل إلى أُمٍ مَجهُولة و أبٍ أشدُ جَهَالة ..

يا هَل تُرى هَل هُم على قَيدِ الحَياة !؟ ..

نَعم هُم على قَيدِ المَاضِي ، كَتبتُ لَهُم إلى هَذهِ الليلة مَا يُقارِبُ خَمسةَ آلافِ رِسالةَ مُغلفة بِاليُتمِ ، و كُلَ بِدَايةِ أسبوعٍ جَدِيد تُنشَر هَذهِ الرِسَالة بِأحدِ الأعمِدة في الصُحُف النَمَساوِية بِعنوانِ :

مُذكَراتِ يَتِيمة ..

نَوعٌ من اليُتمِ ، أو ضَربٌ منَ الجُنون ! ، لا أعرف إن كَانت هَذهِ الرسَائِل تَصِل إلى تِلكَ الأُنثَى التي لَطَالمَا كُنتُ أحلُمَ أن أدعُوهَا : بِأُمِي .. !

دَائِماً في مُذَكراتي الأسبوعِية و على مَدَارِ خَمسِينَ سَنة كُنتُ أكتُب لهَا بَعدَ العنوانِ العَرِيض الذِي أثارَ تَعاطُفاً كَبِيراً من الشَعبِ النمساوي و الألمَانِي و حَتى السويِسري .. سُؤال إطِمئنَان :

صَباح الخَيرِ يا أُمي ..

يا جَرِيمَةَ المَاضِي المُعتَق ..

يا جِنايةَ المَخاضِ المَنسي على الثُلوجِ ..

هَل عَرفتِني يا سَيدة أكياسِ الطَحِينِ !! ..

هَكَذا كُنتُ أبدأُ مُدونتِي ، بِالسُؤالِ الخَافِتِ و الخَالِي من مُقومَاتِ الحنَانِ ، خمسُونَ عَاماً و أنَا أبحثُ عنهَا في أفرانِ المُدنِ و القُرى المُحِيطة ، و حَتى بَينَ ذَراتِ الدَقِيق المَسحوقة ، و حتى أمَامَ بَيتِ النَارِ الذِي يَخرجُ منهُ الخُبز المُغطَى بِالجِنَاية ..

أنَا لَستُ أُسطُورة كمَا يَظنُ مُتَتَبعِي الأدبِ ، و الغَارِقينَ بَينَ قَوافِلِ الشعرِ ، و النَائِمِينَ على أوراقِ الحُبِ ، أنَا أُنثى مِثلكُم ، جَبلنِي اللهُ من لحمٍ و دَمٍ و عَظم ..

سِني قد تَخطَى سَبعونَ شَيبة ، و خَمسُ أسنَانٍ بالياتٍ ، و أوراقٌ وَحِيدة يَتِيمة قد طَوت تَعَاستهَا على مِنضَدة خَشَبِية أرستقراطِية لِكَاتِبة و رِوائِية أطلقوا عَليهَا .. الكَاتِبة و الرِوائِية : هِيلكَا يَنَاير ..

و منذُ تِلكَ الجَرِيمة التي أُلقِي بِي نَحوَ بابٍ مُؤصَدٍ بِأقفَالِ اليُتمِ ، و أنَا لا زِلتُ مُقِيمة على أعتَابِ البَردِ في بِدَاية كُلِ رَأسِ سَنة ..

تَقول الأُسطورة التي تَرّخهَا عُبَّاد المَاضِي و فَلاسِفة التَارِيخ ، بِأنَ نِهَايةِ الحَربِ العَالمِية كَانت مُروعة ..

لن يَأبه أحد لِتِلكَ الطِفلة ، لأنَ أوروبَا كَانت مَشغولة بِحَفلين عَظِيمَين ، و كَانت كَنَائِس فِيينَا التي أصَابهَا الدَمَارِ قَد أُشعِلت

بِشمُوعِ الرَبِّ و أشجَارِ الأرزِ و بَقايا الأنقاض ، أتوا ليحَتفلوا بِالنَجاة ..

هَذهِ ليلَة العيدِ يا أُمي ..

الآن عُمري خَمسَة وسَبعونَ مَخَاضاً ..

إنهَا ذَاتُهَا اللَيلة التي فَعلتِ فِعلتِكِ و تَركتنِي على مَوارِبِ الطُرقَاتِ، وهَا أنَا اليَوم أَكتُبُكِ بِحبرِ الدِمَاءِ التي إستَقذَرتِ مَسحهَا عن جَسَدِي ..

أرَجوكِ أُماه ..

هَل كَانت تِلكَ الدمَاء جَرِيمة !؟

و إن كَانت جَرِيمة ! ، فَلمَا حَملتِ بِي ! ، و هَل كَانَ حَملي في أحَشائكِ تِسعة أشهُرٍ عَن طِيبِ خَاطِرٍ و حُباً لِي ! ، أم حُباً لِمن إستَأمنتِهِ على سَريركِ !..

هَل خَانَ رَجُل الأسَرّة حُبَكِ و قَلبَكِ ! ، أم أنتِ من أتقنتِ الخِيانة ! ، هَذهِ أسَئِلة سَوفَ أرفعُهَا إلى الربِّ و عَظمتِهِ ..

طُرقَ البَابُ بَغتَة ، و دَخلت خَادِمَة السَيدة هِيلكا تَحملُ بَيدِهَا فُنجَاناً منَ الشَاي بِالياسَمِين ، إنهَا السَيدة إيفا كَبيرةَ الخَدمِ في قَصرِ السَيدة الكَبيرة هِيلكَا ، و أقدَم خَادِمة في القَصر ، و مَع كِبر سِنِهَا إلّا أنهَا الأقوى و الأشجع و بَيت أسرَارِ السَيدة الكَبيرة ، فَلقد أفنَت من عُمرِهَا عِشرونَ سَنة في خِدمةَ القَصرِ ، و هَا هِي هَذهِ الليلَة أبت أن تُغَادِر إيفا القَصر و تَدع السَيدة الكَبيرة وَحدهَا ، لأنَ هَذهِ الليلة

هَي لَيلة حُزن و لَيسَ لَيلةَ عَيد في أروقةِ القَصرِ ، فَإنَ السَيدة الكَبيرة في مِزاجٍ لا بَأسَ بِهِ لأنهَا في صَدد أن تَنتهِي من كِتَابَة آخِر رِواية لَهَا التي عَنوَنتهَا :

إلى أُمي ..

ـ عُمتِ مَسَاءً سَيدَتي ، أنَا آسَفة لأنَني أزعجتُكِ ، لَقد حَانَ مَوعِد إحتِسَاءِ الشَاي و تنَاولِ الدَواء ..

ـ عُمتِ مَسَاءً إيفا ، كَم السَاعة الآن !؟ ..

إنَ إيفا تَعرف مَا يَدورُ في رَأسِ السَيدة الكَبيرة هِيلكا يَنَاير ، و تُحَاوِل أن تَتَهَرب من الأسَئِلة التَي تَطرحها في هَذهِ الليلة على وَجهِ الخُصوص ، و تَتَفادى مِزاجهَا المُتَقلب ، لا أحد يَعي مَا تَرنو إليهِ السَيدة هِيلكَا سِوى خَادمتها المُقَربَة لهَا بِشَكلٍ لا يُوصَف .. إيفا ..

ـ سَيدَتِي السَاعَة التَاسِعة ، و أتَمنَى أن تَشربي فُنجَانَ الشَاي و تَأخُذي دَواءَ الضَغط ..

دَائِماً بَعدَ كُل أمرٍ تُصدِرهُ الخَادِمة من أوَامِر طِبية و صِحية ، كَانَ يُصِيب السَيدة هِيلكَا حَالةَ شُرودٍ ، و تَرقُبٍ صَامتٍ لا يُعرف مَا هُوَ سَبَبهُ ..

ـ سَيدَتِي أنَا أعتَذِر عن تَدخُلي بِشَيءٍ لا يَعنِينِي، ولَكن هَل إنتَهَيتِ من كِتَابَةِ الرِواية التي بدَأتِ بِهَا منذُ سَنة !، وفي نَفسِ هَذهِ اللَيلة!..

نَظَرت السَيدة هِيلكَا إلى الخَادِمة ، وأشفَقت عَليهَا ، وأجَابتهَا من غَيرِ أي تَذَمُرٍ :

ـ عَزِيزَتِي إيفا ، سَوفَ أنتَهي من كِتَابتِهَا بَعد سَاعتين، أي قَبلَ نِهَايَةِ هَذهِ السَنة بِسَاعة وَاحِدة ..

إبتَسَمت إيفا لِسمَاعِ الخَبر ، مع أنهَا كُل يَومٍ تَقرأُ السَيدة الكَبيرة مَا كتَبتهُ للخَادِمة ، و مع أنَ الكَلمَاتِ مُحزِنة للغَاية فَلقد كَانت الخَادِمة تَستَمتِع بِمَا كَتبت السَيدة الكَبيرة ..

لَيسَ للسَيدة الكَبيرة في هَذا الكَوكب لها من أحبة إلا ثَلاث أشخَاص فَقط ، أولُهُم بَطرِيرك فِيينَا الحِبر الأعظَم السَيد أنطوان ، و كَبيرة الخَدم السَيدة إيفا ، و كَلبهَا الذِي لا يُفارِقُهَا المَشهُور بِالقَصرِ بِالسَيد بِيل ..

و مع أنهَا شَغلت العَدِيد من المنَاصِب في الدَولة آخِرُهَا قَبل خَمسَ عَشَرة سَنة بِمنصب مُستَشارةِ رَئِيسِ الدَولة ، و قَبلهَا أيضاً بِوزيرةِ الثَقافة النِمساوِية ، فَإنَ علاقَاتهَا الإجتمَاعِية مُنعَدِمة ..

فَهي لا تُحبُ أن تَخرجُ من مَكتِبتِهَا التي في قَصرِهَا الذِي وَرَثتهُ عن زَوجِهَا السَيد : كَافِين جُونس .. الأمريكِي الأصلِ ، و عَميد كُليةِ الفِيزياء في جَامِعةِ فِيينَا .

مِكتَبة مُؤلفة من ثَلاثة آلافِ رَفٍ منَ الكُتبُ الأدَبية ، و مَكتَبٍ خَشَبي مَصنُوعٍ من خَشَبِ الزَانِ المُغَلفِ بِموادٍ حَافِظَة لِفخَامَةِ إتقَانِهِ ..

و كَنب مُنَجد بِالحَرِيرِ الأبَيضِ اليابَانِي ، و كُرسِيٍ هَزازٍ كَأولِ هَدِية لَهَا من زَوجِهَا السَيد كَافِين .. و ثُرَياتٍ أرستقراطِية قَد سَقطَ جمَالُها منَ السَقفِ بِبَرِيقهَا الكِرِيستَالي ، و بَارٍ صَغيرٍ بِكُؤوسِهِ المُعتَقة البَاهِظَةِ الثَمنِ و التَارِيخِ .. و حَتى الأقلامِ الذَهبِية و الأوراقِ الفَخمة المُؤطرة بِالذَهبِ ، و أنَاقة في السجادِ الإيراني التي لا تُضاهِيهَا أيةِ أنَاقة ..

هَيَ هَكَذا دَائِماً ..

مُتنَقِلة بَينَ كُرسِيهَا الهَزازِ ، و كَنبتِهَا التي تَكتُبُ عَليهَا ، تَخيل يا عَزيزي كَم من رِواية كَتبت ، و كم من مقَالٍ صَحفِي خَطت ، و كم من مُؤلفٍ نَقدِي دَونت ، و كم من خَاطِرة بَكت و تَباكَت ، و كم من رِسالة يُتمٍ خَلَّدت !! ..

تَخَيل كم يَحمل هَذا المكَان من آلامٍ !، و كم يَحمل قَلبهَا من فَراغٍ!، هَي الفَارِغة من كُلِ وجودٍ و غَفوة و رَقدة ، أمضَت حَياتَهَا تُقاومِ القَدر ، لَيس لأنهَا أُنثَى و حَسب .. بل لأنهَا رُكناً مُحصَناً بِالحُزنِ و اليُتمِ ..

إنهَا بُرودَة و وحدة الوَرق ، تُوهِمُ رائِحةَ الحَبرِ بِأنَني لا زِلتُ قَوِية بِدُونِ خَطِكَ ، و أقلامُكَ لا تُسَاوي جنَاحَ بَعوضة أمَامَ صَفاءِ الوَرق ..

إنهَا سَيدةِ القَلمِ التي أرادت أن تَسُدَ زُعاقَ يُتمِهَا بِالنجَاحِ في كُلِ مَراحِلِ حَياتِهَا ، إنهَا الحَاصِلة على شَهَادَةِ الدَكِتوراة في الآدَابِ من جَامعَةِ فِيينَا ، و الحَاصِلة على ثَلاثِةِ عَشَرة دِكتُوراة تَشَرِيفِية من أفَخمِ جَامِعَاتِ العَالمِ ..

لا أُخفِيكَ سِراً ، فإنَ غُرفَةَ الإستِقبالِ التي تَتَسِعُ لأكَثَرِ من خَمسِ مِئةِ رَجلٌ .. جُدرانِهَا المسقوفة بِالزُجَاجِ و الرُفوفِ مُكتظَة بِالدُروعِ و الأوسِمة و الشَهَادَاتِ و النَياشِين و هَلُم جرا ..

إحدى عَشَرة خَادمة منَ النِسَاء ، و أرَبعة مِنَ الرِجَالِ في قَصرِهَا الذَي أودَعتهُ للأيتَامِ بَعد مَوتِهَا ، إنهَا سَيدةِ الصَمتِ المُباغِتِ للمُبادَراتِ الشَرسة ..

مَا دَخلت في مَعركة أدَبِية إلا و أنصَفهَا حُكامها مِن عَمَالِقة للأدَبِ و المَعرِفة ، لَيسَ إستعطَافاً ، و إنمَا لأنهَا تَستَحِق هَذهِ المَكرومَات.. أبداً لَيسَ جَبراً لِخاطِرهَا المَكسور ، بَل إنهَا دَائِمَاً في القِمة و أمَامَ الفِتنِ هَي في مُنتَصَفِ كُلِ شَيء ..

إنهَا سَيدةَ القلمِ الأولى في العَالمِ ..

إنـهُا لَيلةَ العَيدِ ..

بِتوقِيتِ الإنسِكَابِ ..

و خَمسَة و سَبعُونَ عَاماً منَ المخَاضِ ..

و السَيدة الكَبيرة مُعَلقة بينَ رَحمِ اليُتمِ و فَوهَةِ الحَياة ..

أُنثى بِعُمرِ تَوابَيتِ الرَحَيلِ لا زَالت على قَيدِ الوَرق ، لا تَكتُب لِتَحيى .. بَل لِتُحِيي تِلكَ الأُم التي أحبتهَا و أبغضتهَا في آنٍ وَاحدٍ..

بَعدَ نِهَايةِ كِتَابَةِ أيةِ رِواية ، تَعُود إلى تِلكَ الصَفحة الأُولى التي تَركتهَا شَاغِرة للبَياضِ ، لِتُقدمَ الإهدَاءِ بِحبِر يُتمهَا و فَراغِهَا :

إهَداء ..

إلِيكِ سَيدَةَ الطَحِين ..

لن أقَولَ لَكِ أُمي ..

لأنَ الفَارِغَاتِ من حَنَانِ الأُمُومة لا يَعرفنَ أُمهَاتهن ، و لَكن سَوفَ أَكتُبُ لَكِ أُمي .. لأنَنَي لَستُ خَائِنة لِعَالمِ الأَرحَامِ و لا لِدِمَائَكِ ..

قَدمَت الخَادِمة إيفَّا فُنجَانَ الشَاي إلى السَيدة الكَبيرة ، و بَدَأت تَحتَسِي فُنجَانهَا و لَكن هَذهِ المَرة على غَيرِ عَادَتهَا .. يَدٌ لَيسَت كَتِلكَ اليَد التي كَانت تَجعلُ من الكَلمَاتِ جَيشاً ، و مِنَ العِباراتِ مَعركَةً ، و مِنَ الحَبرِ مُحِيطاً تُغرقُ بَياضَ الوَرقِ في جَحِيمِ أفكَارِهَا ..

يَدٌ تَهتزُ إرتِجَافاً ، حَتى تَكفكَفَ الشَاي مُحَاوِلاً أن يَنسَكب على ثِيابهَا ..

أسَرعت إيفَّا لِتُمسِكَ بِفُنجَانِ الشَاي قَبل أن يَسقُط من يَدِ السَيدة الكُبرى .. جَفَفَت ما تَنَاثَر من رُذاذَ الشَاي على فُستَانِهَا الأسَود ..

ـ سَيدِتِي أرَجوكِ .. أشفِقِي على نَفسكِ ، أُرِيد أن أُحضِرَ لَكِ الطَبَيب دِيفِيد كَي يَرى مَا أَصابَكِ ، هَذهِ الحَالة أولُ مَرة تُصَاحِبُكِ..

نَظَرت السَيدة الكُبرى إلى خَادِمتِهَا و ابتسَمت :

ـ إيفَّا يَا حَبَيبتَي ، كَم أنتِ لَطِيفة و تَخشين على صِحَتِي ، أنَا مُمتَنة لَكِ لِأنَ الحَياة مَنحتنِي صَدِيقة و شَقِيقة مِثلَكِ ..

سَقَطت دَمعَة من غَيرِ ميعَادٍ من آمَاقِ إيفَّا ، و ابتَسمت حتى تُخفِي آثارَ حُزنِهَا على السَيدة :

ـ سَيدِتي ، أنَا عِشتُ في هَذا القَصرِ عِشرينَ عَاماً ، أشعُر أنَنَي أحدِ أفرادِ هَذهِ العَائِلة ، و بَعد أن رَأيت هَذا اللُطف منِكِ ، و المُعَاملة التي مَنحتِني إياهَا كَشَقِيقة لَكِ .. لا كَخَادِمة .. شَعرتُ أَني في أمَانٍ.. يا سَيدِتي أنتِ سَيدَتِي و وَالدِتَي و شَقِيقَتِي و كُلَ عَائِلتِي ، سَوفَ أبقَى أَخدمُكِ مَا دُمتُ عَلى قَيدِ العَافِية ..

لم تَتَحمل السَيدة الكَبيرة هَذهِ الكَلمَات المُجَردة من نِفاقِ البَشَرِ الذَينَ قَابَلتهُم في مَسَيرتِهَا الأدَبِية في كُلِ مَراحِلِ حَياتِهَا ..

ـ آآآه حَبَيبَتِي إيفَّا .. لا تَقولِي ذَلَك ، فَأنَا لم أفَعل شَيئاً ، أنتِ الوَحِيدة التي أشعُر بِالرَاحة مَعَها ، لَقد تَحملتِ مِزاجِي المُتَقلب كَثيراً ، و عَانَيتِ مَا عَانَيتِ مَعي ، و حَتى أرُدَ لَكِ الجَمِيل ، أتمنَى أن تَقبَلي منِي هَذهِ الهَدِية الصَغيرة ..

تَفاجأت إيفَّا و قَالت في نَفسِهَا : عَن أيِّ هَدِية تَتحدث السَيدة ! ، أيُعَقل أنهَا أُصِيبت بِالزهَايمَر! ، أو فَقدت عَقلهَا ؟ ..

ضَحِكت السَيدة الكَبيرة بَعد أن رَأت مَلامِحَ خَادِمتهَا قَد تَغَيرت ، رَاحت تَنظُرُ السَيدة الكَبيرة إلى إيفَّا .. نَظَرات مَصحُوبة مَع قَهقَهة:

ـ حَسنَاً عَزَيزَتِي إيفَّا ، أحَضِري لِي رَسَائِلَ البَرِيد من خِزانتِي التِي أضَعُ فيهَا مُستنداتِ التَملِيك ...

لا زَالت المِسكِينة إيفَّا في حِيرة من أمرهَا ، و أشَياء تُراودهَا و تَقولُ لَهَا : مَا الذِي يَحدُث للسَيدة الكَبيرة ! ، و خُصوصَاً في هَذا اليَوم ! ، الذِي يَعرف جَميع من في القَصر بِأنهُ يَومٌ مَشؤوم بِالنِسبة للسَيدة الكَبيرة !! ..

أخَرجَت إيفَّا مُستنَداتِ التَملِيكِ من خِزانَةِ السَيدة الكَبيرة ، و هَذهِ الخِزانة بِالضَبط ، يُمنع الإقتِراب إليهَا أو تَنظِيفهَا إلا كَبيرة الخَدم السَيدة إيفَّا ..

حَملت إيفَّا تَعجُبهَا بَيدَين تَنتَابَهُما إرتِجَاف مُخَيف ، و مَا إن وصَلت إلى السَيدة الكَبيرة .. حَتى أمَرتهَا أن تُسنِدهَا على كُرسِيهَا الهَزاز ..

دَائِمَاً المُرافِق الوَحِيد في جَميعِ حَالاتِ حِلهَا و تَرحَالِها كَلَبَهَا المُدَلل الذِي يَقومُ بِتَسلِيتهَا السَيد بِيل .. يُرافِقُهَا و يُرِيح كُهولتَهُ بِجوارِهَا ، فَأينمَا تَجد السَيدة الكَبيرة .. تَجدهُ بِجوارِهَا ، على سَرِيرهَا ، في حَدِيقتِهَا ، في مَكتَبهَا ، في إجتمَاعَتِهَا ، في نَدواتِهَا ، و حَتى في طَائِرتهَا التي تُقلهَا من بَلدٍ إلى بَلد ، إنهُ الصَدِيق الصَامت المُدَلل بِالنِسَبة للَسيدة الكُبرَى ..

سَاعَدت إيفَّا سَيدةَ القَصَرِ على النُهوض من مَكتَبِهَا و إجَلاسِهَا على كُرسِيهَا الهَزَازِ ، و حَتى كَلبُهَا لحِقهَا و جَلسَ بِجَانِبهَا ..

وَضَعت إيفَّا مَزِيداً منَ الخَشَبِ في المِدفَة التي تُجَاورُ الكُرسِي الهَزَازِ ، و أحضَرت لَهَا كِتَابَ مُذَكراتِهَا التِي تَكتُب عَلِيهِ هَواجِسهَا و يُتمهَا .. و قَلمهَا الذَهبي الذِي تَرويهِ بِالحَبرِ بَينَ فَينة و فَينة ..

قالت السَيدة الكَبيرة :

ـ إجلسِي يا إيفَّا ، أُرِيد أن أُريكِ هَدِيتَكِ و تَتَعرفِي عَليهَا عَن قُرب ، فَأنتِ تَعَرفينهَا جَيداً ، و كُنتِ تَتَمنِي أن يَكونَ لَدِيكِ مِثلهَا يَوماً ، فَلقد سَمعتُكِ تَقولِينَ لتِلك الخَادمة المُختَصَة في قِسمِ الضِيافة ..

صُدِمت إيفَّا لِذَاكِرةِ سَيدةِ القَصَرِ ، و تَعجبت من فَحوى هَذهِ الهَدِية التي لم تَعرفِهَا بعد ، و عنِ المَوضوعِ الذِي تَحدثت بهِ مَع خَادِمةِ قِسمِ الضِيافة ..

ضَحِكت السَيدة الكَبيرة .. مَرة أُخرى أمام وجهِ إيفَّا الذِي بَدلَ مَلامِحهُ و إزدادَ إحراجاً ، لم تَكُن إيفَّا تَطمع بِمَا عِندَ السَيدة من مُمتَلكَات ، و لَكنِهَا أضغاثُ أمانِي فَقط ..

ـ يَا سَيدتِي أنَا هُنَا لأخدُمَكِ ، و لا أُرِيد منكِ شَيئاً أبداً ، فَأنتِ أعرفَ النَاسِ بي ، و لو أُرِيد أيةَ شَيءٍ لَطَلبتهُ منِكِ ، أرجوكِ يا سَيدتِي لا تُحرجِيني !! ..

فَتحتَ السَيدة هِيلكا المُستنَد و أخَرجت ظَرفاً قَد كُتبَ عَليهِ : هَذهِ الأوراق خَاصَة بِشَقِيقَتِي إيفَّا ، كَبيرة الخَدمِ في قَصَري ..

بَدأت إيفَّا تَرتَجف ، و لَكن هَذهِ المَرة تَرتجفُ حَيرة و عَدمِ وَعيٍ بمَا يَجري في هَذهِ اللحَظة و هَذهِ الليلة بِالذَاتِ ..

فُتِحَ الظَرف ، و بَدأت السَيدة تَزدَادُ سُروراً بَالشَيءِ الذِي سَتُقدمهُ لِخَادِمتهَا التي لم تَتَركَهَا و لو لِلحظة وَاحدة .

الرَسَائِل ..

تِلكَ الظُرُوف ..

المُغلفة بِالأسَرارِ الضَبابَية ..

و مَا إن كُشِفت المَوارِبِ ..

و بَان منهَا مَا بَان ، حَتى تَرى على وَجهِ صَاحِبِ السَرِ ألغَازَ سِرهِ ، المَلامِحِ المُطَلسَمة و تَبدُلِ منَاخَاتِهَا و مَشَاعِرهَا ، تُعرف بِفتَحِ الأوراقِ المُغلقة ..

ظَرفٌ قَد طَوى سَعَادة ، أو رُبمَا حُزن ، أو رَاحة ، أو تَعب .. هَي الرَسَائِل كَالأقدَارِ تَمَامَاً ، لا نَعلمُ ما تَحملهُ لنَا إلا بِمواجهتِا بِحِزُمة هَائِلة منَ الشَجَاعة ، حَتى نُقَاومَ إنجِراف ظُلمتِهَا و نُورِهَا عنِدَ إنسِكَابِهَا في بَئرِ المَشَاعِر ، هَي الرَسَائِلِ المُحكَمة بِالصَمتِ نَفرحُ بِهَا قَبل حَلِ مَوارِبهَا ، كَطفلٍ إستَيقَظَ في صَباحِ العيدِ و وَجدَ فَوقَ رَأسِهِ صُندُوقاً مَعقودا بِالأشَرِطة المُلونَة ..

أربَعونَ ثَانِية و الحَيرة وَاقِفة بِجَانِبِ إيفًا ، و جَمِعٌ غَفَير من كَربونِ التَوتَرِ يُرافِقُ اللحَظة بِكُلِ تَفاصِيلهَا ..

و بَعد أن فُتِحَ الظَرف ..

و أرَادَت أن تَكَشِفَ السَيدة سِرهَا لإيفًا .. طَلبَت السَيدة الكَبيرة من إيفًا أن تَقرأ مَا كُتِبَ :

ـ تَعَالِي إيفَّا و أمسِكِي هَذهِ الوَرقة و إقرئي مَا بِهَا ..

تَقدَمت المِسكِينة و الرَعبُ قَد أخذَ منِهَا حَيزاً من سُكونِهَا ، و أمسَكت مَا أُخفِي عنهَا ، تَدخَلت السَيدة الكَبيرة و أرَادت أن تُربِتَ على قَلبِهَا ، فَقَالت :

ـ لا تَقلَقي إيفَّا .. سَوفَ تَقَرئي شَيئا يَسُركِ ..

كُتبَ في أعلى الوَرقة ..

سَند تَنَازُل .. فَلقد تَنَازَلت السَيدة هِيلكَا لِخَادِمتهَا يإفَّا عن قَصرِها الصَغير الوَاقعِ على أحد سُفوحِ جِبالِ مَدِينةِ سَالزبورغ ..

صُعِقت إيفَّا بِهَذا التَنَازُلِ ، و لَكن المَلامِح التي في وَجهِهَا لم تُعرف بِسَبَبِ الصَدمة ، هَل هُوَ فَرح أو حُزن أو حَيرة !؟ ..

ـ سَيدتِي الكَبيرة لمَاذَا فَعلتِ ذَلكَ ! ، و أنَا بِهَذا السنِ لَستُ بِحَاجة إلى الدُورِ و القُصور ! ، أرجُوكِ سَيدتِي أن تَعدِلي عنِ الفِكَرة ، فَأنَا لم أخدُمكِ طَمعاً بمَا عِندَكِ ، و إنما حُباً لَكِ و لِقَلبكِ ..

وَقع في قَلبِ السَيدة الكَبيرة رُذاذٌ من سُحبِ الذَاكِرة ، لقد أعادهَا ذَلِكَ المَوقفِ إلى كِتَابٍ عن مآثر الرَاهِبة العَظِيمة هيلكَا كُوتش التي عَاشَت مَأسَاة الرَهبنة بَينَ حَربَين .. الحَرب العَالمِية الأولى و الثانِية ، أُنثَى ذَاع خَيرُهَا و بَركتَهَا في أصقاعِ أُوروبا ، حَتى سَمِعَ بِهَا الحَبرِ الأكبَرِ في رُومَا ..

تِسعونَ عَاماً مِنَ العَطَاءِ و تَربَيةِ الأيتَامِ الذِينَ فُقِدَ آباؤهُم ، كم من كَنِيسَة رَممت ، و كم من جَائِعٍ أطعَمت ، و كم من مَريضٍ عَادت!! ..

أسِئلة ، لا يَعرفُ أجوبتِهَا إلا الرب ..

هُو الذِي أمدَهَا بِالقوة ، و جَعلهَا تَتَحمل قَسوةِ الأمَمِ التي زَحفت فَوقَ دِمَاءِ الأبرِياء ، يُقَال بِأنَ أولِ دَيرٍ بَنتهُ كَانَ في بَيتهَا .. حَيثُ كَانت تُخفِي أطَفالَ اليَهود في بَهو بَيتهَا كَي لا يَقتلُونهَم النَازِيين الذِي جَعلوا من أوروبا كَومة منَ الخَراب ..

و أنشَأت أول جَمعِية لإطعَامِ الفُقَراءِ و المُشَردِين في فِيينَا ، و فَتحت أول مَجلسٍ إستِشارِي خَيري نَسَوي ، كَانوا يُلقِبونهَا الأُوربِيين :

قِدِسَيةِ الخُبزِ ..

نِسَبةً لِكَمِياتِ الخُبزِ التي تُوزعُ على الجِياع من مَخبزِهَا الخَيري الذِي أنشَأتهُ في الحَيَّ الخَامِس في فيينَا ، تسعونَ عَاماً و هَذهِ االرَاهِبة تُصلي للرَبِ أن يَسقُطَ الشَرِ ، لأنَّ مَا جَرى من جَرائِم بِحَقِ البَشَرية في الحَربين العَالمِيتين قَد حُفرَ في ذَاكِرةِ الأُروبيين.. و منَ المُحَالِ مَحوهُ ..

تَقول الأسطورة ..

عِندمَا وُجِدت السَيدة الكَبيرة أمَام بَابِ المَيتم ، مُلقاة و صُراخ الطِفلة قد إرتَفع مع إنِكِشافِ أول دَقائِق لِبداية عَامٍ جَدِيد .. كَانَ العَويل في غُرفَةِ الرَاهِبة هِيلكَا كُوتش قَد فَاضَ بِصَخَبهِ مع أجراسِ الكنَائِس ..

سَبعة عَشَرة رَاهِبة في غُرفَةِ الأُم هِيلكَا كُوتش ، بَعد أن فَاضَت رُوحهَا إلى الله ، أسَرعَت إحدَى الرَاهِباتِ في السَاعة الثانية عَشَرة و عَشر دقائِق إلى مَكتَبِ بَطَريركَ فِيينَا لِتُعلمهُ بِأنَ الأُم هِيلكَا قَد مَاتت ..

عِندَ خُروج الرَاهبة من البَوابة الخَلفِية للمَيتم ، سَمعت صَوتَ طِفلة صَغيرة قَد لُفت بِكِيسِ طَحين أبَيض ، و آثارِ الدمَاءِ عَليهَا و حَتى حَبلهَا السِري لازَال مُعلقاً بِصُرتِهَا .. صَرخت الرَاهِبة من هَذا المنَظَر ، و تَكَاد الطِفلة أن تَتَجمد من مَوسم الثَلجِ الذِي غَطى الدَمار الذِي لَحِقَ بِالعَاصِمة فِيينَا من جَراءِ الحُروب ..

عَادت إلى المَيتَم و جَميع الرَاهِبات كُنَّ يَنظُرنَ إلى الرَاهِبة التي كَان من المُفترض أن تَكونَ عندَ البَطَرِيرك ..

ـ أيهُا الأخوات .. إنَ الرَبَّ قَدّمَ لِهَذا المَيتم طِفلة صَغيرة حَدِيثَةِ الوِلادَة ، و على مَا أظُن بِأنَ أُمهَا وَضَعتهَا في مَكانٍ قَريب من هَذا المَيتم ..

صُعق راهِبات الدَيرِ و المَيتَم .. مَمَا يحدُث من فجَائِع في هَذهِ العَاصِمة ، كَانَ البُكاء لَيلتهَا أضعافٌ مُضَاعَفة ، و مُقَسمٌ بَينَ حَدَثَين مُهمَين .. حَدث الحَياة الجَدَيدة لِطفلة لا أحد يَعرف أبويهَا ، و لِموتِ رَاهِبة كَانت تُدعى بِقدِيسَةِ الخُبز .. الجَميع مَشغولٌ هَذهِ الليلة ، إنهُ عَامٌ مُنتَفخِ النَقائِض لَيلة تُدعى بِلَيلةِ العَيد تَموتُ فِيهَا أيقونَةِ الخُبزِ ، و تُولدُ بَينَ أكوامِ ثُلوجِهَا و قَرعِ أجراسهِا طِفلة لم يُقطع حَبلهَا السِري بَعد ، و لم تُزَال الدِمَاء من تَعاسَتِهَا ، إنهَا لَيلةِ رَأسِ السَنة ، و رَأسِ المَوتِ ، و رَأسِ الحَياة ، و رَأسِ الدَمَارِ ، و رَأسِ الحُرِية ، و رَأسِ الإستِقلالِ ..

الأُم سبينَا ، رَاهِبة الكنَائِسِ العَتِقة في عَاصِمة النَوتَاتِ المَصحوبة بالكَوارِثِ ، عُمرهُا بِعُمرِ جَداولِ الخَيرِ ، و إبتِسَامتهَا كَصوتِ أحجَارِ البِيانو ..

تَعزِفُ للرَبِ في أروقَةِ الأديرة ، و تَرعى الأيتَام في صَوامعِ الخَيرِ ، تَعثّر القَدر بِها عِندما وَجدت الطِفلة أمَامَ بَابَ المَيتم ، سِرٌ غَريب إنتَابَ الأُم سبينَا ، و تَساؤلاتٍ جَمة رَاحَ ضَحيتُهَا عدة لَيالٍ غَارِقة في عَالمِ الحَيرة و التَفكِير ..

لمن تَكون هَذهِ الطِفلة ! ، و لمَا وَضعتهَا أُمهَا أمَام بَابَ المَيتم ! ، و كَيفَ تَجرأت تِلكَ المَرأة أن تُلقِي بِإبنتهَا في هَذهِ الليلة الثَلجِية أمَامَ الطُرقاتِ المُتجمدة ! ..

الخَبَر ..

حَقيبة مُهمة ..

يَحملُهَا نَادِلِ الصَمتِ إلى مَسَامِعِ المُتَطفِلين ، لمَا سُمِّي خَبَر ! ، لأنهُ عِنوانٌ مُهم تَتَداولهُ المَسامِعِ و الأفواهِ من كَاذبٍ لِكَاذِب ، هَكَذا نَحنُ بَنو البَشَر .. من أسَاسِياتِ أيةِ حَدِيثٍ أو غَيبة أو نَمِيمة أو كِذبة أن نُضِيفَ بَعضَ النَكَهَاتِ لِنستَصغِرَ الخَبر أو لِنُعظِّمهُ ..

أسهَل أداة لإعَلانِ عَنِ أيةِ خَبَرٍ هُو السُمعَة السَيئة ..

و مَهمَا مَا تَجملتَ بِالتقوى و العِفة و حَتى المِيك آب ، فَأنتَ في عُيونِ من حَولِكَ مُتهَم حَتى تَثبُت إدَانَتكَ ..

يا أيُهَا المُدَانِ المِسكِين ..

هُنَا فِيينَا عَاصِمة الخَرابِ بَعد كُلِ قَصفٍ و دِمَار ..

لم تَنم هَذهِ الليلة لأنَّ الخَبر المُهم على قِسمَين ...

الأُم هِيلكَا كُوتش غَادَرت الحَياة ، و على بَابِ مَيتَمهَا وُجِدت طِفلة مُغطاة بِالدِمَاء ..

كَانَ الدَيرُ مَشغول بِتَجهِيزِ جُثمَانِ الرَاهِبة هِيلكَا كُوتش ، كَانت الرَاهِبة سَبينَا تَقطعُ مَا تَبقَى من حَبلِ الطِفلة السِري و تُجهز المَاءِ المَغلي لِغَسلِ الدِمَاء التي غَطت جَسدهَا ..

إثنتَان تُغَسلان على سَرِيرِ القَدرِ ، أُنثَى إختَارت المَوت في لَيلة الربِ ، و أُنثى إختَارت الحَياة على أعتَابِ اليُتمِ ، جَميعُنَا أيتَام المُصَادَفة ، و أحَلامنَا بَينَ كَمَاشَتِي الفَنَاء .. لا أبدَاً إنَا الخَيرَ لا يَفنى لا هُوَ و لا صَاحِبهُ ، إنَ الفَنَاءَ للشَرِ و من يَشَدُ شَراشِفهُ ..

كَانت الطِفلة تَبكِي بِشِدة عِندَ إنقطَاعِ حَبلهَا السِرِي ، و قَد صَاحبَ بُكَاؤها عَوِيل الرَاهِباتِ حَولَ جُثمَانِ الرَاهِبة الأُم ، فبَينَ أصواتِ طِفلةِ الحَياة و رَاهِبةِ المَوتِ جِدار وَاحد فَقط .. سَبعة عَشَرة رَاهِبة مُنهَمِكَاتٍ بِالبُكَاءِ و التَحنِيطِ ، و رَاهِبة وَاحِدة مُبَتهِجة بِإنقاذِ طِفلة من شَراهِةِ الثُلوجِ المُلكَومة فَوقَ الخَرابِ و الدَمَارِ و الكِلابِ المُشَردة التي تَجوب طُرقاتِ المَدِينة في المَدِينة القدَيمة ..

دَخَلت إحدى الرَاهِباتِ إلى الرَاهِبة سبينَا و هَي تَغسلُ جَسد الطِفلة المِسكِينة ، كُلَّ شَيءٍ كَانَ على أُهَبةِ الجَاهِزِية .. المَاءِ السَاخنِ ، و الصَابونِ التَقلِيدي ، و ثِياب قديمة لِحَدِيثِي الوِلادة التي استَعارتهَا من غُرفَةِ المَيتمِ ، و مُعَقِمَاتٍ و عُطر أطَفال ..

إنَ الطِفلة الصَغيرة تَتَضورُ جُوعاً .. لا تَعرف مَاذَا سَتفَعل الرَاهِبة سبينَا ، تَدخَلت الرَاهِبة الثانِية :

ـ على مَا يبدُو أنَ سبينَا سَعيدة !؟ .. مَا هَذا السِر يا سبينَا ! ، هَل أنتِ مَسَرورة لأنَ الرَاهِبة الكَبيرة فَقدت الحَياة !! ..

سَقطت دَمعة من قَساوةِ الكَلامِ الذِي صَدرَ من الرَاهِبة ، و لَكن لم تُدافِع عن نَفسِهَا ، و إنما دَافعت عن الإنسَانِية :

ـ كَيف يَصدرُ من فَمَكِ هَذا الكَلام .. أينَ السَعادة و أنَا مَشغولة في تَجهِيزِ هَذهِ الطِفلة ، رُبمَا منَحكِ الربُ هَيئةَ رَاهِبة ، و لكن نَزع من قَلبَكِ لُغةَ الرَحمة ، لَو ذَهبتِ و إنشَغلتِ بِأمرٍ يُرِضِي الله لكَانَ خَيراً لَكِ من التَجسُسِ على مَشَاعِرِ أخواتُكِ في دَارِ الرَهبنة ..

شَعرت الرَاهِبة بِالإهَانة ، مَع أنهَا هَي من بَدَأت بِإهَانَةِ الأُم سَبينَا ، لم تَتَحمل مَا وُجهَ لهَا من إتهَامٍ في نَواياهَا ..

ـ الأُخت سَبينَا ، أتمنَى أن تُفقِدَكِ هَذهِ الطِفلة عَقلَكِ ، رُبمَا هَي لَقِيطة ، و أنَا مُتأكِدة من ذَلكَ ..

إحمرّ وَجهُ الرَاهِبة سَبينَا و لم تَتَحمَل قَذارةِ الكَلامِ الذِي صَدرَ من الرَاهِبة المُتَعجرِفة ، وَضَعت الطِفلة على منشفة نَاعِمة و و لَطمت سَبينَا وَجهَ الرَاهِبة و أمرتهَا أن تَخرُج ..

ـ أُخرجُي من هُنَا أيتهُا الحَقيرة ، كَيفَ تَجرُؤينَ على إخَراجِ هَذا الكَلامِ القَذِر ، لا أعتَقد بِأنَكِ تَربِيةِ أديرة و لا رَهبنة .. مَا أقسَى كَلامَكِ ، أنَا أشكُر الرَب لأنَ الطِفلة لم تَعِ مَا قُلتِهِ لهَا ، من أي صِنفٍ هَذا القَلب الذِي تَحمِلينهُ !؟ ..

تَمسَمرت الرَاهِبة التَافِهة في مَكَانِهَا ، و شَعرت بِقَذارة لِسَانِهَا ، و أنهَا إرتَكبت خَطِيئة كَبيرة بِحقِ الطِفلة و بِحقِ سِبينَا ، بَكت الرَاهِبة لِكَلامِهَا الذِي يَهزُ مُدناً عَظيمة بِرُمتِهَا ..

ـ أُختي سَبينَا ، أنَا أعتَذِر حَقاً ، فَليُسَامِحَنِي الرَب ..

أكمَلت سِبينَا عَملهَا من غَيرِ أنَ تَلتَفت إلى الرَاهِبة و قَالت لهَا :

ـ إذهَبي إلى المَعبد و صَلي للرَبِ كَي يَصفح عنَكِ ، فَهُنَاك كَلام أقَسى من قَتلِ النَفسِ ، فَلا أعلم إن كَان سَيُسَامِحَكِ الله .. !! ..

لم تَتَحرك الرَاهِبة من مَكَانِهَا ، كَانت تُراقِبُ سِبينَا و تَتَبعُ حَنَانِهَا و لُطفَهَا مع هذِهِ الطِفلة التي لا يَبلغُ عُمرهَا إلا سَاعاتٍ قلائِل ..

ـ أُختي سَبينَا ، دَعِيني أُسَاعِدُكِ كَي يَغفِرَ الرَبُ لي ، دَعِيني أفعَل أيَّ شَيء فَإنَ قَلبي لم يَعُد يتَحمل الذِي صَدرَ منِي قَبل قَليل ..

لم تَلتَفت سَبينَا للراهِبة و لم تُعطِ لَهَا أيّ إهتمَام ، و لَكن شَعرت بِأنَ الرَاهِبة قَد لانَ قَلبهَا ، و دَائِمَاً سبينَا تَعتَقد بِأنَ الشُعور بالذَنبِ هُو ملامِح مَغفِرة من الله ..

و أخَيراً نَظَرت إلِيهَا و قالت لهَا :

ـ جَهزِي لِي المَاء المَغلي معَ العَسَل ، و ضَعِيهِ في الرَضَاعة ، و هَيئي سَرير الحضَانة في الغُرفة رَقم سَبعة ..

سُرت الرَاهِبة بِالأوامِرِ التي تَلقتهَا من سِيبنَا ، و أسَرعت لِتُجَهزَ المَاءَ المَغلي مَعَ العَسَل و سَريرِ الحاضِنة ، كَانت الطِفلة تَبكِي بِشدة منَ البَردِ الذِي دَخَل إلى جَسَدِهَا و شِدة الجُوعِ التي قَاستهَا .. أتَتَ الرَاهِبة و بِيدهَا الرَضَّاعة ، أبتَسمت سِيبنَا في وَجهِ الرَاهِبة ، و وَضعت الطِفلة بَينَ ذِراعِيهَا و أمرتهَا أن تُرضِعها ، و بَدأت الطِفلة تَرضَع المَاءِ مع العَسَلِ بِشِدة ..

إنهَا بِدَايةِ الحَياة ، مَاء مع العَسَل في حُجرةِ الرَاهِبة الكَبيرة هِيلكَا كُوتش ، كَبيرةِ الأدَيرة و الصوامِعِ و دَارِ الايتَامِ ، الرَاهِبة المَعروفة بقِدِيسَةِ الخُبزِ ..

أشَرق وَجه الرَاهِبة التي أبدت تَعجرُفهَا من سَبينَا ، كَانَ المَشَهدُ جَمِيلاً في بِدَايةِ العيد ، تَدخَلت سبينَا :

ـ هَل عَرفتِ يا أُختاه لمَاذَا كُنتُ أبتسم ! .. إنهَا الرَحمة ايتُهَا الرَاهِبة ، تِلكَ التي في أحشَاءِ من لم تَمُت إنسَانِيتَهُم ، يَرسُمهَا الرَبُ على وُجوهِ الرَاحِمينَ ، حَتى في أتعَسِ اللحَظَاتِ ، و دَائِمَاً الأحَياءِ نُقدِمَهُم على الأموات ، لأنَ الذِي رَحل من هَذهِ الدُنيا إنتَهت رِسالتهُ ، و بقيِ عَملهُ ، فَاحَ عِطرهُ أو رُبمَا نَتنهُ .. الجُثَث مَكَانُها التَوابِيت و التُراب ، و الأحَياء مَكانهُم الحُب و الرَحمة .. قُولي لي أيَتهُا الأخُت :

ـ لمن سَنُوظِفُ رِسالتنَا الآن ! لامرَأة إنتهَت حَياتُها في دَيرِ اللهِ ! ، أم لِطِفلة لم تَبلُغِ الدِفئِ و الشَبعِ !؟ .. نَحنُ دُعاة حُبٍ و رَحمة ..

تَنَام ..

نَعم تَنَام ..

و كُلٌ ينَامُ على حُلمهِ ..

لأنَ الوَقائِع لا تُشبِهُ دَاخِلَية أيّ أحدٍ منَا ..

إنَ الحُلولَ في أيةِ عُقدٍ تُحيطُ بِنَا ، أمرُهَا مَحسُوم ، كَالذِي سَهرَ على الحُبِ دهراً ، و نامَ على سَريرِ العِشقِ مُتنَعِماً ، إنَ الجَمَادَات لهَا نِهَايات و مَخلداً إلى الرَاحَة ، فَكِيفَ ببنِي البَشَر ! ..

إنهَا لَيلة العَيد في عَاصمةَ الرُكَامِ و الدَمَارِ ..

و الليلُ قَد تَقاسَمَ فَرحتَهُ و حُزنهُ مع بَقايا أُنَاسٍ ، هُم من مُخَلفات الحَربِ العَالمِية ، لا خُلودَ لأحد ..

وَحدهَا عُملة الخَير ، يَتَداولهَا أهل الحُبِ ، و مَا رسبَ من شَرٍ تَسوقُ بِهِ الأيام إلى حَيثُ لا نَعلم ، و لَكن يَبقى على جُدرانِ الذَاكِرة حُطامَ نِسيان و خُروق حُزنٍ ..

إنَ هَذهِ الرُوح كَحبلِ غَسيل ، هُو وَحدهُ القَدر من أعطَاكَ زِمَامَ النَشرِ و التَجفِيفِ ، فَأمَا أن تَنشُرَ على حَبلكَ خَيراً تَرتَوي منهُ البَشَرية ! ، و أمَا أن تَنشُرَ شَراً و تَبقى تَشتمكَ الإنسَانِية إلى نِهَاية هَذا العَالم ..

كَانت لَيلة العَيدِ خَالِية منَ الزينة ، لأنَ الجُوع زِينة هَذهِ المَدِينة ، و لم يَكُن في وَسَطِ سَاحتنِا شَجرة عَيد ، لأن الفَقر شَجرتنَا ..

لَقد رَضينَا بمَا أهدتهُ لنَا الحَرب من حُرية و إستِقلال ، و رَضينَا بِأنهُ أخَذ أجمل مَا لَدَينَا من فِتيِة و أطَفالٍ بِعُمرِ الحُبِ ، و لَكن بَعد مُعَانَاة مع المَوتِ ، وُلدَ فَجرٌ جَدِيد على رَحيلِ امرأة لا زَالت هَذهِ المَدِينة تَدعوهَا :

بِقِدِيسةِ الخُبز ..

و أهدَى اللهُ لِهَذا الدَيرِ الصَغير طِفلة أكَياسِ الطَحين ، نِسَبة لِكِيسِ الطَحِين الذِي وَجدوهُ قَد لَفَّ يُتمهَا أمَامَ أعتَابِ المَيتم ..

نُقِلَ جَسد القِديسة بَعد أن حُنِطَت و بُدِلت ثِياب الرَهبنة بِثوبِ المَوتِ و دُهِنت بِالزَيتِ و وُسّدت بتَابُوتٍ خَشَبي رَديء ..

لا يَوجد وَقت لحَفرِ التَوابيت و لا لتلمِيعها ، فَعَاصَمة المُوسِيقى التي كَانت تُغني في كُلِ مَحفلٍ قد كُسِرَ كَمَانُهَا ، و قُطِعت أوتَار كَمَنجَاتهَا ، و حَتى أحجَار البيانو قَد بُعثِرت ..

كَانَ العَالمُ كُلهُ يَنظُر إلِينَا بِعَينِ الشَفقة ، و لا أحد يَستَطِيع فِعَل أيّ شَيء ، لأنَنَا نَحنُ القِصَة الحَزِينة على مَسرحِ نِهَاياتِ القَرنِ المَشؤوم ، كُنَا سُعداء لَيلتهَا ، و لَكنَ مَوت الأُمِ هِيلكَا و وُجود تِلكَ الطِفلة على بَابِ الميتم ذَبحَ سَعَادتنَا ..

وُضِعت الطِفلة بِالحَاضِنة ، و سُجِيت الأُم هِيلكَا في تَابوتِهَا المُتواضِع ، و لَكأنَ اللهَ أرَادَ أن يُعطِي دَرساً لأُمهَات المَيتمِ بِأنَ مَا يَحصُل مِن مَشهدٍ دَاخِلَ الدَار هُو مُجرد إلتِقاء مُتَزَامن بَينَ الحَياة و المَوت ..

خَلدت الأجسَادُ إلى الرَاحة ، و كلا الجَسَدَين أخذَ من وِسَادَتهِ نَوماً عَمِيقاً حتى يَخرُجَ أول ضَوءٍ لِعَامٍ حَزِين ، و لم ينَم الميتُم لَيلتَهَا من الفَاجِعة التي حَلت بِالدَارِ ، كُنَ طَوال اللَيلِ يقمنَ الصَلواتِ و يُغنَينَ للرَبِ إحتِفاءً و حُزناً للطَامة التي حَصلت ..

بِإنبِثاقِ الضَوءِ ، تَسَللَ صَوت الطُفولة مَاراً بِالمَمَرِ الصَعبِ ، حَتى وَصَل بُكَاء الطِفلة إلى آذانِ الرَاهِبَات ..

تَركتَ سبينَا صَلاتهَا ، و أسَرعت إلى الغُرفة رَقم سَبعة لِتَرى الطِفلة التي وَجدتهَا ..

ـ يا إلهِي إنهَا بِحَاجة على التَنظِيف ، و على مَا يَبدو أنهَا تَتَضورُ جُوعاً ..

بَدأت الأُم سبينَا تُنَظِفُ جَسدَ الطِفلة المُبتلِ بِالبولِ ، و مَا إن جَردتهَا من ثِيابِهَا المُتسِخة ، حتى تَبسَمت الطِفلة ، شَعرت سبينَا بِهَذا النَقصِ الذِي لم تَتَذوقهُ الإنَاثِ العَانِسَاتِ ..

إنهُ نَقصٌ بِفِيتَامِين الأُمومة ..

ضَمتَها إلى صَدرِهَا ، و شَعرت بِدفئِ بَراءتِهَا ، و فُتِحَ البَابُ بَغتة ، إنهَا الرَاهِبة التي وُبِخت اللَيلة المَاضِية من قِبلِ سبينَا ..

ـ هَل تُرِيدِين المُسَاعَدة أُختَاه ..

فَرِحت سبينَا عندما شَعرت بِأنَ هَذهِ الراهِبة قَد إنتَابتهَا أحاسِيس التَوبة ..

ـ نَعم أتمنَى أن تَصنَعي لَها الحَليب إذا سَمحتِ ..

قُسِمَت المَهَام بَينَ أُمَين أهدَينَ أُمومَتهُنَّ للرَبِ و خِدمَةِ الضُعفاءِ و الفُقَراءِ و المَسَاكِين ، فَبَعد أن بُدِلت ثِياب الطِفلة و صُنِعَ لهَا الحَلِيب ، وَضَعت سبينَا الطِفلة المِسكِينة في حُضنِ الرَاهِبة ..

ـ مَاذا أفعلُ بهِا ! ..

ـ أرضعِيهَا ، فَإنَ رُوحَكِ بِحَاجة للحُبِ ، و قَلب الطِفلة بِحَاجة لحنَانَكِ ، سَوف تَشعُرِينَ بِالرَاحة ، و تَفرح الطِفلة بِمَا صَنعتِ ..

سُرت الرَاهِبة بِهَذا العَرض لأنهَا بِحاجة لأي شَيءٍ للتَكفِير عن ذَنبهَا ، رَاحت تنظُرُ إلى الطِفلة كَيف تَشربُ بِشَرهٍ من الجُوعِ و بُرودَةِ المَكَانِ ..

ـ أُختاهُ سبينَا ، أُرِيد أن أطلُبَ منِكِ طَلباً ، أتمنى أن لا تردي لِي أمراً ..

إبتَسَمت سبينَا لأنَ مِياه الحُبِ عَادة إلى جَداوِل القَلب ، قَالت من غَيرِ أي تَردُدٍ :

ـ تَفَضَلي .. ! ..

إنكَسَرَ وجه الرَاهِبة بَينَ حُزنٍ و خَجلٍ و قَالت :

ـ أتمنَى أن لا تُخبرِي أحداً بمَا جَرى بَينِي و بَينكِ ليلةَ أمسٍ ، فَصَدِقِيني بأنَنَي لن أُسَامِحَ نفسِي على الذَنبِ الذِي إرتَكبت ..

سَال الدَمعُ على وَجنتي الرَاهِبة ، و لَكَأنَ الأرضَ لم تَتَسع لِذنبهَا ، و لكن قَابلت سبينَا دُموعهَا بِالشَفقة ..

ـ لا تَقلقِي ، فإنَ الرَبَ سَامحَكِ ، و أَنا أيضاً سَامحتُكِ ، و الذِي جَرى يَومَ أمسٍ قَد نَسِيتهُ في تِلكَ الليلة ، فَأنَا لَستُ منَ الثَرثاراتِ التي تَفضَحُ أخواتها في دارِ الرَبِ ..

أشَرقَ وجه الرَاهِبة بقَوانِينِ العَفوِ الرَبانِية في صَباحِ أولِ يومٍ من هَذهِ السَنة ، و فَتحت صَفحة جَدِيدة بسُؤالٍ جَدِيد ..

ـ لِأنكِ وَجدتِ هَذهِ الطِفلة ، فَمنَ الحَقِ أن تُطلقِي عَليهَا اسماً يَليقُ بهَا ، فهَل هُنَاك اسم يا تُرى !؟.

خَفضَت سبينَا رَأسهَا إلى الارضِ و رَكعت للرَبِ ، و شَبكت أصَابِعهَا ، و أخذت نَفساً و صَمتاً عمِيقاً ، و رَفعت رَأسَها و قَالت:

ـ بِأمرٍ منَ الرَبِ ، سَوفَ أُسمِيها :

هِيلكَا يَنَاير ..

نِسبة لأُمنَا هِيلكا كوتش و نِسَبة ليناير أول شَهرٍ من السَنة ..

إنهَا هِيلكَا يِنَاير ..

مَولودة لَيلَة رأس السَنة ..

تَبلغُ ثَمَانِ سَاعاتٍ بِتوقِيتِ اليُتم ..

شَبِعت الصَغيرة من حَلِيبِ البَقَرِ ، و نَامت في حَاضِنتِهَا ، و حُملت كَبيرة الرَاهِباتِ إلى كَنِيسَةِ القِديسِ شتِيفان في عَرَبةِ حمَلِ البَضَائِع ..

عَاشَت خَاوِية من مَلذَاتِ الحَياة ، و رَحلت خَاوِية ، كَأنَ الحَياة جَفَفَت جَمِيعَ منَابِعِ الرَاحة من عُروقِهَا ، الوَظِيفة الأسَمى في هذا العَالم التي تُعطِي للروح مَزيداً مِنَ الحَياة ألا و هو عَمل الخَير ..

أكثَر من ثَلاثة آلافِ فِيينَاوي شَاركوا قُداسَ جنَازَتهَا في الكَنِيسَة الكُبرى التي تَتَوسطُ العَاصِمة ، و ثَلاثة آلافِ مَلاكٍ كَانَ يَنسُجُ للطِفلة الصَغيرة قَدرهَا ..

هَكَذا هي الحَياة .. لا بَقاءَ إلا للخَيرِ ..

هَذا اليَوم في أولِ يَومٍ منَ السَنة ، يَستَقبلُ التُراب قِديسَة الخُبزِ ، يُشَيعُهَا الحُزنُ و البُكَاء ، من الذِي يَمشِي بَينَ أزِقةِ الرُكَامِ إلى مَقبرةِ القِدِيسِين ! ..

لا يَوجد هُنَا غنَياً ، لا يُوجد هنُا قَوِياً ، لا يُوجد هُنَا عَظِيماً ، لأنَ الحَربَ جَعلت من بُؤسِ البَشَرِ سَواسِية كَأسنَانِ المِشطِ ، أُنَاسٌ نَزَلَ

في سَاحتِهِم الفَقر و الجُوع و الضَعف ، و فَقدوا أغلى مَا يَملكون من مالٍ و خُبزٍ و رَاحة و طمأنِينة و حَتى أحباب و أرواح ..

إنهُ الرُبع الخَالي منَ الدَمارِ و الكَوارِث ، و مَا تَبقى من حُطَامٍ بَشَرِي و حَجري ، الجَميعُ مُنهمكٌ بِإعَادَةِ إعمارِ المَدِينة ، و الفَضل الأول هُوَ للنِسَاء ..

نَعم أُنثَى تُتقِن فَن العَمَارة و الهنَدسة ..

إنَ الذِي بَنى هَذهِ الحَضارة الأوروبِية هي أُنثى ، لأنَ الرِجَالَ كَانُوا في الجَبهَاتِ يُلاحِقونَ مَا تَبقى من نَازِيين و مُجرِمِين ، و المَرأة حَمَلت عِبأ كُلَ شَيء من إعمَارٍ و إنشَاءٍ و هَندسَة و تَربية جَيلٍ لم يَعتد على الحُرية ..

أصَبحَ الدَيرُ و المَيتَم مَكَاناً لِتَربِيةِ الأطَفالِ ، هُنَا و على هَذهِ الأرض لا يُوجد فَرق بَينَ من لهُ أبوَين أو ليَسَ لهُ أبوَين ..

الكُلُ في مِضمَارِ العِلم سَواسِية ، و لا يُوجد بَينُهم جَاهِل ، و إن وجد فَإلى العَمل ، رُشِحَت الرَاهِبة سبينَا لِإدارةِ الدَارِ ، و كُلُ من في الدَارِ إختَارهَا حُباً لِصدِقِهَا في العَمل ، و لِجُهدِهَا الذِي لم تَمل و لم تَكل منهُ يَوماً ..

أعَادت الرَاهِبة سبينا هَيكلة الدَارِ ، و قَسمتهُ إلى عِدةِ مَراحِل ، و أنشأت ثمَان عَشَرة فُرناً و مَقهى من أجلِ الإكتِفاءِ الذاتِي و عدم إحتِياجِ أية مُسَاعدة من أيِّ شَخصٍ كَان ..

و مَضت الأيام في دَوامة النِسيان تَطوي دَمَارَ المَدِينة يَوماً بَعدَ يَوم ، خمس سَنواتٍ منَ الشَقاءِ ، حتى زَالَ ثمَانِين بِالمِئة منَ خَرابِ الحُروبِ ، فَهُنَا الشَعب الذِي أرادَ مُواجَهة المَاضِي بِالحَضارة ، بُنِيت فَوقَ الدِمَاءِ قِلاع و صُروح و مُنتَزهَات و مَعَامِل و مُنشآت .. و مُدت الطُرُق بالسِكَكِ الحَدِيدِية و عُبدِت الشَوارِع بالسَواد ..

إنهَا المُعجِزة العُظمى التي أوقَفت البِلاد على قَدميهَا خِلال خَمس سَنوات بَعد الحَربِ العَالمِية الثَانِية ، مَا الذِي جَرى يا تُرى ؟ ..

آلاف المَفقودِينَ و المُشَردِين في جَمِيعِ أنحَاءِ أوروبا ، و النمَسا كَانَ لَهَا نَصِيبٌ من هَذهِ الكَارِثَة الغَير إنسَانِية ، أول إذاعَة رَادِيو تَبثُ في العَاصِمة فِيينَا بَعد سَنة من الحَربِ ، أولِ قَناة تِلفازِ بَعد سَنتِين من الكَارِثة ، ثَمَانِ صُحف مَحلِية لِتنَاقُلِ الأخَبارِ ، و كُل الأديرة فَتحت أبوابهَا لتِعَلِيمِ الأطَفالِ ..

و لَكن هَذهِ المَرة التَعليم الحُر ، البَعِيد عن أيةِ طَائِفِية أو أي فِكرٍ نَازِي ، أول مَرة النِساء تَقود الدَراجة الهَوائِية ، صُنِعت أول

سَيارة و سَارت على الشَوارِعِ ، و أُستُبدِلت بِالعَربات التي تَجرُهَا الخَيول و البِغال ، كَانَ ضَرباً منَ اليَقين أن تَخرُجَ كَنبتة وَحِيدة من تَحتِ الرُكَام ، و هَذا ما حَصَل ..

فُتِحت أول جَامِعة في جَمهُورِيةِ النِمسَا ، و تَوافَد إليهَا الطَلبة مُنكَبِينَ على العِلم من كُل منَاهِلهِ ، إنَ البِلاد بِحَاجة إلى كَوادِرٍ لِتعمَيرِ الوطن ، فَأنقَذوا أنفُسَهُم بِأن استَدعوا كَافَة الكَوادرِ العُمالِية و الثَقافِية من كَافَةِ أنحَاءِ العَالمِ أغلُبهُم من تُركِيا و صِربيا ..

الجَميع يَدٌ وَاحِدة هُنَا ..

و لَكن كَانت ظُروف تُشبهُ المَجاعة ، من قَساوةِ المَوارِدِ الغِذائِية و الطِبية ، و أيضاً كَانت الإرادَة أكبر من كُلِ شَيء ، حَيثُ أرسَل الحُلفاء كَافة مَا تَحتَاجهُ المُدن المُدمرة من أدوية و أغَذِية ، لم يَفقدوا الأمل ، لأنَ الأمل في البَقاءِ على الحَياة أكبر من أي مُوجزٍ إنهِياري ..

كَانت الأمُهَات في دارِ الأيتَامِ يَعملن ليلاً نَهَاراً لِإنقاذِ مَا تَبقى من أطفالٍ مُشَردِينَ في العَاصِمة فِيينَا ، و كَانَ يأتيهم أطَفال من الوِلاياتِ المُجَاوِرة لِعدمِ تَوفُرِ دُور للأيتَام ، و في نَفسِ الوَقتِ لا يُوجد أحد من العَائِلات تَستَطِيع أن تَتَبنى طِفلاً ، لأنَ المَجَاعة و الكَارِثة الإنسَانِية أكبر مما تَتَصور ..

لِيضِيق دَار الأيتَامِ بِمَا فِيهِ ، و أُفتُتِحَ ثَلاث دُورٍ أُخرى ، و طُلب مَزِيد منَ المُتَطوِعاتِ من النِسَاءِ المُشَرداتِ اللواتي يَجُبن الشَوارِعِ و الباحِثاتِ عن مَأوى ..

أربع مِئة و ثَلاثُونَ يتيماً ..

كَانَ رَقم صَادم ، و نَذِير فَاجِعَة على جَبين الإنسَانِية ، و لَكن تَدخلَ الصَليب الأحمر التَابِع لِدول التَحالُف ، و قُدمَت الأغَذية و الأدوِية للدَارِ ..

الأُم سَبينَا ..

كَانت مُنهمكة بِسَبَب العَمَل المُتَواصل ..

و أمَا هِيلكا ينَاير تَولت رِعَايتهَا الأُم سبينَا ، لأنَّ هَذهِ الطِفلة لَهَا ذَاكِرة مُؤلمة جداً ، فَأرادت الأُم أن تَرعَاهَا بِنَفسِهَا ..

عُمر الطِفلة خَمس سَنواتٍ منَ اليُتم ..

تَعلمت القِراءة و الكِتَابة في أحدِ فُصولِ الدَارِ الدِراسَية مع بَقِيةِ المُشَردِين ، في السَنة الأولى من مَراحِلِ التَعليم ..

لقد كَانت غُرفة الأُم سبينَا عِبارة عَن مَكتبة مَحشوة بِالكُتب ، و كَانت تَقرأُ الأمُ للطِفلة قَبل نَومِهَا و في وَقتِ فَراغِهَا ..

تَعَلقت هِيلكَا يناير بِسمفونِيةِ الكِتَابِ ، و رائِحة الكُتب ، حَتى كَانت تَقرأُ بِصُعوبة من الكُتب ، إنهَا الكَنوز الدَفينة التي خَبأتها الأُم سبينَا تَحتَ الأرضِ حتى لا تطالها أيادِي النَازِيين ..

لقد كَانَ النازِيون يحرقونَ أيَّ كِتَابٍ يَقعُ بَينَ أيدِيهم ..

إنَ بَعدَ كُلَ فَصل خَير ..

و بَعد كُلَ ثَورة رَبيع أنِيق ..

كُل يَوم تُمحَى آثار الخَراب ، و لَكن مَا عَلِقَ في الذَاكِرة من دَمَارٍ و دِمَاء لا يُمكِن أن تُزِيلهُ الأيَام ، كَيفَ يَنسَى من فَقد ذِراعَه أو سَاقَه أو حَبِيبته أو أُمه أو أهَله ..

أُنَاسٌ على كَوكَبٍ يُدعَى أُوروبا ، أنهكتُهم الحَرب ، و مَزقتهُم الإحِتلالات ، و شَردتهُم المُلاحَقات ، و قَطعَ أوصَالهُم المَوت ..

إنَ من أنصَفَ هَذا الدَمَار ، و سَارَ شُروده إلى مَن طَواهُم التُراب ، سَيعَلم بَأنَ البَشَرِية تُسندُ جَرائمهَا على جُدرانِ المَطَامِعِ الشَخصِية ، و حَصد المَلذَاتِ و الهَيمَنة على حِسَابِ غَيرهَا من بَقايا ضِعاف ..

كَانت عَاصِمة الكَمنجَاتِ في العَشر السِنِينَ التي شَهَدت تَطوراً في البُنيان و تَقدُماً في حَضَارة لم يَكونوا يَعلموا بِأنَهَا سَتوصلهُم إلى مَرتَبة التَطوِرِ ..

كَانَ كُلُ من عَليهَا من بَشَرٍ يَخافُونَ الليلَ ، لأنَ الظَلامَ مُستَدعَات للأسئِلة ، مَكَان لحفَرِ مَنَاجِمِ المَاضِي ، لَيسَ هُنَاكَ من مَاضٍ لهُم ، لأنَ مَا أفنتهُ الأيامِ و فَتَت أوصَالهُ الحُروب كَان مُلطَخاً بِالدِمَاءِ ..

لا أحد مِنَا يَهوى سَمفونِية الدِمَاءِ ، و لا أحد يُحبُ إسترجَاع ذِكراهَا ، لَيسَ خَوفاً من لَونِهَا ، مع أنَ بَعضَ الدِمَاءِ المُراقِ من أجلِ تَحرِيرِ الوَطن ، أو إستِرجَاعِ حُقوقَ الغَيَر .. هي دِمَاء شَرفٍ نَتفَاخرُ بهَا ..

مَصَائِب الأيتَامِ الذِين وُجدوا في قَارِعَةِ الطُرقَاتِ و على بُؤسِ الأرصفة ، بِأنَ دِمَائَهُم التي لم تزُل على أجسَادِهِم فَورَ ولادتهم .. أنَ هَذهِ الدمِاء إستدعَاء للريبة و الحيرة ..

لا أحد يُحبُ الإجابة على هَذا النَوعِ من الأسئِلة ، لأنَ الجَواب مُبهَم و لا أحد يَعرفه سِوى الذَينَ يَخافُونَ من المُواجَهَة ..

كَانَ العَالمُ يَعيش بَعد إنتِهَاءِ الحَربِ و قَبلهَا في إنحِطَاطٍ من كَافَةِ مُقوِمَاتِ الإنسَانِية .. لأنَ البَشَرَ كَانُوا أشباه بَشَرٍ فَقط ، و أمَا الرَحمة فَكَانت مُجَردة و عَارِية من القُلوبِ و الأرواحِ ..

كانَ الشَرُ و الجَشَعُ و الطَمعُ المُسَيطِرين الوَحِيدين على عُقولِ البَشَرِ ، لأنَ الجَوعَ أنهكهم .. لم يَعُد أحد يفكر بِأحد ، كَانَ جُل تَفَكِيرِ الفَردِ كَيف سيُمضِي يَومهُ و من أينَ سَيأكُلَ .. سَادَة الجَشَع و الطَمع و فَشَت مِهنَة السَرِقة و السَطو على مُمتَلكَاتِ الغَيرِ ..

و لَكن بِإنتهَاءِ هذهِ المَجزرة المُروعة .. إنتهَى كُل شَيء ، و كَانَ من يُدقِقُ بِصورِ الضَحَايا في مَزَادَاتِ الصَلِيبِ الأحمرِ يَقِفُ دَقيقة ذُهولٍ على مَا حَصَل .. !

لِمَاذَا الحَرب !؟

و لمِا هَذهِ الأرقامِ التي يَصعُبُ على العَقلِ عَدها و إحصَاء جَمَاجمها عَبر صُور فوتوغرافية ، و إلصَاقِهَا على مَنشَرِ البَاحِثِينَ على ذَوِيهِم ..

كَانت الأُم سبينَا تَكرهُ ما يُسمَى بالليل ..

كَانَ الليلُ بِالنِسبة لَهَا مَصدَر شُرودٍ عن الكُل ، في لَحظة ألقت بِهَا ذَاكرتهَا إلى مُخلفاتِ المَاضِي ، و لَو أن المَاضِي مُجرد مُخَلفات لَكَان من السَهلِ التَخلص منهُ ، فَللأسَف المَاضِي بالنسة لأي شَخصٍ منَا هُو السُم الذِي نَتَجرعه بَينَ فَينة و فَينة ، و كُل شَخص منَا لهُ مَاضِيهِ المُؤلم الذِي يُلاحِقُكَ أينمَا إتجهَت ، مع أنَهُ بِغنى عنكَ ، إلا أنهُ كُلكَ و حَقَائِبُ سَفِركَ و محفظة ذَاكرتكَ و مَراحك و مُستَراحك ..

تَدخُلُ الأمُ سبينَا إلى غُرفَتِهَا التي تُقيم مَعها الطِفلة هِيلكَا يَنَاير بَعد كُلِ يَومٍ و لَيلة ، مُنهمكة من العَملِ المَتواصِلِ في تَربيةِ الأطَفالِ و إطعَامِ الجِياعِ و إغَاثَةِ المَلهُوفِ ..

شَيءٌ وَاحدٌ كَانَ يَجعلُ من التَعبِ بُخاراً ، عندمَا تَركُض الطِفلة هِيلكَا إلى حُضنِ الأُمِ سبينَا ، و يَبدأُ سِينَاريو العِنَاق و مَخَاض الحنَانِ اللا مُتنَاهِي ، كَانت سبينَا تَخافُ هِيلكَا و من الأسئِلة التي لا تَنتَهي في كُلِ لَيلة ، تِلكَ الأسئِلة التي يُطِلقُهَا الصِغارِ على الكِبارِ ، تِلكَ القنَابِل المُؤقَتة التي يَصعبُ على اللسان الإجَابة عَليهَا ، كَانت لَيلتَهَا لَيلة رَأسِ السَنة ، حَيثُ أحضَرت الأُم سبينَا للطِفلة المُدَللة هَدية عِيد مِيلادِهَا العَاشِر ، كَانت تَتَمنى الطِفلة أن يَكونَ لَديهَا دَفتَر جَمِيل مُزَخرشَ تَكتُب عَليه مذكراتها ، إلا أنَ الأمُ سبينَا فَاجَأتهَا بالدفتر و قَلم مُذَهب لا يَكتُبُ بِهِ إلا أصَحاب الطبقة الأرستقراطِية ..

إنهَا كَعكَة العَيدِ في لَيلةِ العَيدِ تَحتَ شَجرةِ العَيدِ و على مَرأى من زِينَةِ العَيدِ ، تُطفِيءُ هِيلكَا يَنَاير شُموعهَا العَشَرة وسَطَ تَصفِيقٍ من أبنَاءِ المَيتَم ..

كَانت لَيلة يَعرفنَهَا كل خَادِمَاتِ المَيتمِ و الدَيرِ ، لَيلَة رَحِيل الأُمِ الكُبرى من بَعد أن استَبدلهَا الربُ بِطِفلة سُمِيت على إسمِهَا ..

الطِفلة ذَات العُيونِ الخَضراءِ ، و لَكأنَ عُيونهَا غَابة غَارِقة بِالطبيعة ، و صَاحِبَةِ الشَعرِ الأشَقرِ الطَوِيل ، مَلاك المَيتَم كمَا يَروقُ لأُمهَاتِ المَيتَم أن يَدعُونهَا ، كَانت كَثيرة الصَمتِ ، و لا

يَروقُ لهَا الجُلوس إلا في غُرفتِهَا التي تَتَقَاسمهُا مع الأم سبينَا ، و كَانت دَائِماً تَحملُ بَين يَديهَا كِتَاباً تَتَهجأُ مَا فِيهِ من أدبٍ ..

تَعلقت هِيلكَا بِالكِتَابِ ، و أحبت صُحبتهُ ، و إختَلت بِمَا في جُعبته من كَلمَاتٍ و عِباراتٍ و قِصَصٍ لا تُعدُ و لا تُحصَى ..

نَامت الطِفلة لَيلتهَا بَعد قِسطٍ منَ الفَرحِ و المَرحِ و تَحتَ أجواء عِيد كَانت تَشعُرُ بِنقصِهِ ، و لَكن لم تَكُن تَعرف مَا هَذا النَقص ..

كَانَت تَنَامُ و هي تُراقِبُ الثُلوجَ كَيفَ تَتَسَاقَط على نَافِذتِهَا ، و كَانت تُراقِبُ القَصرَ الذِي بُني حَدِيثاً أمَامَ بَابَ المَيتم ، فكَانت نَوافِذ القَصرِ كَبيرة جِداً ، و ستَائِرهُ الحَرِيرِية طَوِيلة و مَعقودة بِحِبالٍ مَكسوة بِالذَهبِ ، و كَانت أرضِيتهُ مَفروشَة بِالسجادِ الأحَمرِ ، و يَتوسَطُ المَدخل الدَاخِلي للقَصرِ شَجرة عَيدٍ أطولُ من أحلامِهَا ، و طَاوِلاتٌ فَخمة و كَراسِي و كَنَب شَاهقة الثَمن ..

كَانَ القَصرُ فارِغَاً من أهلِهِ ، و عَامِراً بِالخَدمِ و الحَشَمِ ، و لَكن كَان هُنَاكَ فَتى صَغير يشغل ذَاكَ القَصر ، فَهو و كَلبه الضَخم و ألعَابه الغَير عَادِية و هِندَامه الأنيق كَان شُغلهُم الشَاغِل ..

كَانت هِيلكَا كَثيرة التَجسُسِ على القَصرِ من النَافِذة الصغيرة من غُرفتِهَا في الطَابِق الخَامِس من دَارِ الأيتَام ، و كَانت أكثَر الأوقاتِ

لتِتَجسس عَلى أصحَابِ القَصرِ هُو المسَاء ، حَيثُ تُضاءُ الأنوارُ و و يَتضَح كُل من فِي القَصرِ من خدمٍ و حَشَمٍ و مَخدومِين ..

خَاوٍ ..

كَنوتة مُتجمدة ..

كَوَترٍ فَارِغٍ منَ النَغَمِ ..

كَقَطِيعٍ مِنَ الخَيالِ المُتَلاشِي ..

كَفَوضَى النَغَمِ بَعدَ كُلِ حَفلِ تأبِين ..

كَكَسيرة تَبحَثُ عن إحتِواء يُرممُهَا ..

إنهُ أولِ يَومٍ من السَنة الجَدِيدة ، كُلَ شَيءٍ مُعَطلٌ بسبب أَمواجِ الثُلوجِ ، كَانت لَيلة حَافِلة بِالفَرحِ ، لَم تَنم فِيينَا لَيلتهَا ، فَلقد كَانت سَمَاؤُهَا مُنِيرة بِالمُفَرقَعَاتِ النَارِية ..

كُل شَيءٍ مُتَجَمِد ، و مُواجِه لِبِدَايَةِ سَنة جَدِيدة ، و الطُرُقات مَسدودة من أكوامِ الثُلوجِ ، و حَتى النَوافِذ ضَبابَية التَركِيب من عَاصِفَةِ الفَجرِ ، و أمَا السِكَكِ الحَدِيدة قَد إعتَذَرت من رُوادهَا لِصُعوبةَ المَشي على مَسَارِهَا ..

فلَقد نَامت الطِفلة على أَملٍ أن تَكتَشِف أهلَ القَصرِ و تُراقِب تَحركاتهُم عَبر نَافِذَتها الصَغيرة ..

و لَكن كَانَ هُنَاك إحدى نَوافِذ القَصر المُقابِلة للمَيتَمِ ، لم تُكشَف سَتَائِرهُ مُذ أن اكتَشَفت هِيلكَا تَحرُكَات أهلِ القَصرِ ..

الطَابِق الأرضي تَتَوسَطه طَاوِلة الطَعام ، و كَان الطِفلُ هُوَ الذِي يَشَغلُ هَذهِ الطَاوِلة في كُلِ فَترة إفطَارٍ و غداءٍ و عَشَاء ..

كَانَ سَرِير هِيلكَ مُلاصِقٌ للنَافِذةِ المُطلة على القَصرِ تَمَاماً ، إستَيقظت الطِفلة على أصواتِ أطَفالِ المَيتمِ الذِين كَانُوا يُزِيلونَ الثُلوج من بَابِ المَيتمِ ، كَانَ الضَحِك شُغلهُم الشَاغِل ، فَهم لا يَتوقَفونَ عنِ الضحكِ صَباحاً مَسَاءً ، لا تَعلم هِيلكَا لمَا هَؤلاءِ الصغار لا يَتوقَفون عن الضَحكِ !! ..

رُبمَا وَحَدَهُم الذِينَ كُسِرت قُلوبهُم ، أو فَقدوا أحبة لم يَرونَهُم ، أو من يَشَعرُونَ بِالنَقصِ ، من يَجلبونَ الضَحكِ و يَجعلونهُ سِتراً لأحزَانِهم ، لمَا هُم بِالذَاتِ ، و لمَا يَستَعملونَ لغة الخفِية و يتَلونونَ بِالسَعادة و هُم أتعَس خَلقِ الله ! .. هَل تَعرف مَا مَعنى أن تَأتي على هَذهِ الدُنِيا جُزافاً و لا تَعرفَ ابويكَ و لم تَرهُم يَوماً .. !

هَذا كَسرٌ لا يَعرفهُ سِواهَم فقط ..

أمسَكت هِيلكَا بِأطرافِ النَافِذة ، و بَدأت تَتَقدَمُ شَيئاً فَشَيئاً ، مُوجِهة عُيونهَا الخَضَراء إلى نَوافِذ القَصرِ ، إنهُ يَوم التحَرِي العَالمِي بِالنِسبة لهَا ، كَانَ دَفتَرُ مُذَكراتِهَا بِجَانِبهَا ..

أمسَكت القَلم الذُي أُهدِي لَهَا و فَتحت أول صَفَحة من صَفحَاتِ مُذكَراتِهَا ، و كَتبت تَاريخ اليَوم : واحد / يَنَاير / ، و كَتبَت بِخط كَبير عنواناً كَانت تُفَكرُ بِهِ قَبل أن تَنام :

أُرِيد عَائِلة ..

لم تَعلم لمَا إختَارت هَذا العنوان ، رُبمَا لأنهَا سَألت الأُم سبينَا قَبل أن تَنام سُؤالاً سَدَّ شَهِيةَ النَومِ عِندَ الأُم سبينَا :

ـ أُماه ، أينَ عَائِلتِي !؟ ..

كَانت تَتَوقعُ الأم سبينَا هَذا السُؤال من هَذهِ اليَتِيمة ، و لكن لم تَتَوقع أن يُطَرحُ سُؤالهَا في هَذا السِن ! ، لم تَعتَد الأُم سبينَا أن تُجِيبَ على الأسَئلة التي تَتلقَاهَا من الأيتَامِ في أوقاتٍ مُبكِرة ..

صَمتت الأمُ بُرهة منَ الزَمنِ تُفَكر بِهذِهِ القُنبلة التي أطلقتهَا الطِفلة في هَذا السِن ، و لَكن أجابتهَا بسُؤالٍ آخَر :

ـ حَبيبتِي هِيلكَا ، هَل يَجبُ عَلي أن أُجِيب الآن ! ، أم أتمهلُ بِالإجَابة !؟ ..

إعتَادَ من في الدَارِ على هُدوءِ الطِفلة هِيلكَا ، فَلم تَكُن عَنِيدة أبداً ، و كانت أحلامُها في قَلبِها ، و أقصَى مُتَطلبَاتِهَا أن تَجلسَ وَحِيدة في مَكتَبةِ الأُم سبينَا ، حَيثُ كَانت تَقضي السَاعات الطِوال وَحِيدة

تُقلبُ أوراق الكُتبِ ، و تَحاوِلُ مَعرفة مَا يَدورُ في اروقَةِ الرُفوفِ ، نَطقت الطِفلة بَعد أن فَكرت بِالأمرِ :

ـ حَسناً ، لَستُ مُستَجِعلة على الإجَابة ، و لَكن أُماه أنَا أرِيد أن أعرِفَ الحَقِيقة ، الحَقيقة فقط من غَيرِ ايةِ إضَافاتٍ ..

بَدأَ قَلبُ الأُمِ يَخفِقُ بِشِدة ، و لَكن أمسَكت نَفسَهَا ، و انسَحبت من النِقاشِ ، و تَركت النَوم فَاصِلٌ زَمنِي للتَفَكِيرِ ..

بِعنوان صَغير في دَفتَرِ مُذكِراتِهَا : أُرِيدُ عَائِلة ..

بَدأت أول مُحاولة لِصَبِ حُزنِهَا على الوَرق ، إنهَا الطَرِيقة الأسَهل حسَب التَجرُبة ، إذا ألمَّ بِكَ أمر أن تَلجأ إلى الكِتَابة و تُفرغُ طَاقتكَ السَلبِية بَينَ السُطورِ ، و نَصَيحة ضَعها حَلقة في أُذُنيك :

كُن على ثِقة عمَياء بِالقَلمِ و الوَرقِ ، و خذ من السُطورِ مَخبأً لِأسَرارِكَ ، فَإنَ الدَفَاتِر لا تَخون و لا تَغدُر ، و إن تَبدَلَ حَالُكَ إلى الأفضَل ، تأكَد أنهُ من السَهلِ التَخلص من هَذهِ الأوراق ، و لو أنَكَ أعطيتَ سِركَ لِإنسَان فَرُبمَا سَوفَ يَشَي عن ما في داَخِلِكَ للمُتَطفِلين و الحَاقِدين ، و لربما سيَستَعملون أسَرارِكَ ضِدكَ ..

كَتَبت الطِفلة هِيلكَا بَعدَ العِنوان :

أنَا بِحَاجة إلى عَائِلة ، مُؤلفة من والدٍ و وَالدِة ، و أُختٍ صَغيرة ، و كَلبٍ أو قِطة تُدَاعِبُ طُفولتنَا ، و بَيتٍ صَغيرٍ على مَقاسِ أحلامنَا ، و غُرفة أتَقاسَمُ بِهَا طُفولتِي لِوحدي ، و مَكتَبة شَهِية بِالقصَصِ ، و صَدِيقاتٍ أتنَزهُ مَعهُنَ بَينَ فَينَةٍ و فَينة ..

لا أُرِيدُ قَصراً ، كالقَلعة المَجاوِرة لِميتَمنَا ، و لا سِيارات فَخمة ، و لا أسرة و سَتَائِر حَرِيرِية مُرخَاة للنِفاقِ ، و لا سجَاد أحمر و لا خَدم و لا طَاوِلات بَرَّاقة ، و لا ثُريات مُعلقة للعُيون الجَائِعة ..

أُرِيدُ بَيتاً سَتَائِرهُ كالحُبِ ، و سَقفَهُ كَالحنَانِ ، و جُدرانهُ مُغطَاة بِورقِ الأمَانِ ، و سَرير وِسَادتهُ رَاحة و غِطَاؤه طَمأنِينَة ، أُرِيدُ أُمّ أغفو على صَدرِهَا ، و تُداعِبُ شَعرِي و تُقَبلُ خَدي و تُغرِقنِي بِالحنَانِ ، و تُودِعني في كُلِ ذَهَابٍ ، و تَغمرُنِي في كُلِ إيابٍ ، و حدَيقة صَغيرة أمَام مَنزلنَا نَتَقاسَمُ معهَا طُفولتنَا ، و لكَن دَائِماً أسَألُ نَفسِي ، لمَا أنَا هُنَا !؟ ..

لَقد أنهت الطِفلة هِيلكَا من كِتَابَةِ أولِ صَفَحة في دَفتَرِ مُذَكرَاتِهَا ، و أحكمَت إغلاقَهُ بِأحدِ أشَرِطَةِ شَعرِهَا ، و وَضَعتهُ تَحتَ وِسَادَتِهَا .. و بَدأتَ بِمُراقَبةِ القَصرِ ، حَيثُ كَانت تَتَجسسُ بِنَظَراتِهَا عَبر النَوافِذ العِملاقة التي لا تُرخى سَتَائِرهُ ..

كَانَ السَيد الصَغير الذِي يِشغلُ خَدم القَصرِ يَتناولُ الإفطَار في الطَابِقَ الأولِ ، و كَان سَيد القَصرِ الكبير يَربطُ الكرافتة على عُنقهِ ، و أمَا السَيدة ذَات أحمرِ الشِفاهِ و الفُستَانِ القَصير كَانت في الغُرفة الثَانِية تَتَحدثُ عبر الهَاتِف .. أمرُهمُ غَريب للغَاية !!

تَجسُس دَائِم ..

أُلاحقُ تِلكَ العَائِلة ..

أعرفُ كُلَ مَا يَدور في القَصرِ ..

عَبر النَافِذة الزمَنِية لليُتمِ ، كَأنَني أقفُ أمَامَ شَاشَة مُتَقلِبة الطُقوسِ ، كَأنَني أبحثُ عن كُلِ تَفاصِيلِ أسَرارِهم ، أشَبَاحهم تَتَسَارعُ أمَامِي من غُرفةٍ إلى غُرفة ، و أمَامَ الخَدم فهُم مَشَغولونَ بِهم ، هَل عندهَم الوَقت مُجَرد إستمتَاع بِالموسِيقى و الكِتَابة و القراءة ! ، في الطَابقِ الخَامِسِ الذِي يُوازِي الطَابق الذِي أعيشُ بِهِ ، و أمَامَ مُواجَهَة نَافِذَتِي كَانَ يَجلسُ السَيد الصَغير و معَهُ مَجموعة منَ المُدَرِسين ، فَكُنتُ أختبئ خَلفَ السَتَائِر و أُراقِبُ مَا يَفعَلونهُ ، كَانَ السَيد الصغير مُنهَمك بِالقِراءة و الكِتَابة ، و أنَا أيضاً كُنتُ مُنهَمِكة بِالتَجَسُسِ على مَا يَفعَلهُ ، فَكَانَ بَين كُلِ حِصَة و أُختهَا يَنظُرُ إلى نَافِذتِي ، و لكأنهُ شَعرَ بِشَيءٍ خَلفَ سَتَائِر نَافِذَتي ..

كُنتُ أشعُر بِالخَوفِ من أن يَكتَشِفَ أمَري ، و كَان فَتى دَقِيق المُلاحَظَة ، فَكَانَ يَدخُل إليهِ كُلَّ يَومٍ أربَعة أو خَمسَةَ مُدرّسين ، و كُنتُ أُمسِكُ مَسرحياتِ شِكسبِير و أقَرأُ منهَا كُلما تَعبتُ من المُراقَبة ، و كَان لَديهِ بيانو خَشَبي كَبير جِداً و مُوسِيقار يُدَرِسهُ أُصولَ العَزفِ ، كَم كُنتُ أتمنَى أن أستَمع إلى عَزفِهِ ، فَلقد تَعلمتُ

العَزف من إحدى الأمهَاتِ المَاهِراتِ اللواتِي يَعزِفنَ كُلَّ يَومِ أحدٍ في كَنِيسَةِ الدَارِ ، و مَع أنَ عُمري عَشرة سَنواتٍ إلا أَنَني أتقنتُ العَزفَ على البيانو حَتى أخَذتُ دَورَة العَازِفة في كُلِ المُنَاسَباتِ الدِينِية التي تُقامُ في كَنِيسَةِ الدَارِ ..

لم يَكُن لَدي أصدِقاء في أروقَةِ الدارِ ، لأنَني قَليلة الإختِلاطِ ، مَع حُبِي الشَدِيد للعُزلة في غُرفتي الصَغيرة التي أتَقاسَمُ معهَا كُتُباً يَصعُبُ عَليَّ فَهمُهَا ، و لَكن مَع مُرور الأيَامِ عَرفتُ أنَ هَذهِ الأوراق التي كَتَبهَا عُظمَاء الأدَبِ هي أفضَل صَدِيق بِالنِسَبة لِي ، و بَعد فَتَرة من الزَمَن عَرفتُ أنهَا أفضَل من أُمِي التي ألقت بِي أمَامَ دَارِ الأيتَام ..

لم أكُن أعلم من هُم أهلي ..

كُنتُ أقرأُ في الكُتُب عن حَنَانِ العَائِلاتِ و الأُمهَاتِ ، و أنَا أيضاً كَانَ لدَيَّ عَائِلة جَمِيلة ، خُذ مَثلاً : كَانت أُمِي هي الوحدة و أبي هُوَ الفَراغ و إخَوتِي هُم الجُدران و سَعَادَتِي هِيَ النَافِذة المُطلة على قَصرِ مَيتَمنَا ..

كَانَ فَتى القَصرِ في غُرفتهِ التي يَتلقى بِهَا الدُروس يُربكنِي بِنَظَراتِهِ إلى سَتَائِرِي المُرخَاة ، هَل يَا تُرى أحسَ بِالخَيالِ الذِي خَلفَ النَافِذة ..

عِندمَا رَأت الأُم سبينَا أن مُعَظم وَقتِي أمنَحهُ للغُرفة التي أقرأُ بِهَا الكُتب الأدبية ، كَانت هُنَاكَ زَاوِية في الغُرفة شَاغِرة للفراغِ ، أحبت أن تُهدِيني شَيئاً ، و طَبعاً لم يَكُن هَذا الشَيء نَابِعٌ من إرادَتِهَا ، و إنمَا الدَار لم تَتَسع للهَدِية التي قُدمت للميتم ، فَأحبت أن تَضَعَهَا في غُرفتِي ..

طُرقَ البَابُ بَغتَة ..

ـ من خَلفَ البَاب ..

ـ أَنَا سَبينَا ، هَل أستَطِيع الدُخول ..

جَريتُ و فَتحتُ البَابَ ، كَانت السَتَائِر مُرخَاة خَوفاً من أن يَعرف السَيد الصَغير أَنَني أنَا من أسكُن تِلكَ الغُرفة ..

دَخلت الأُم سبينَا ، و رَأت الغُرفة مُرخَاة سَتَائِرهُا ، و بَعض الكُتبِ مَوضَوعة على المِنضَدة كَنتُ أتَتَبعُ مَا أقرأهُ ، و دَفتَر مُذَكراتِي مَفتوح كُنتُ على وَشكِ أن أكتُبَ عَليهِ شَيئاً من آلامِي ..

ـ أَنَا آسفة يا صَغيرتِي يَجب أن نَدخل قَلِيلاً من أجلِ أن نَضَعَ لكِ البِيانُو الذِي وَعدَتكِ بِهِ ..

صَمتُ أمَامَ بَردِ النَغمِ ..

ـ لا عَليكِ سَبينَا .. تَفضَلي ..

كَانَ مَعهَا سِتَة من نِسَاءِ الدَارِ يَحملن قِطَعَ البِيانو الضَخمة ، و بَدأَ التَركِيب و طَرقِ المَسَامِير و الضَجِيج الذِي آلمَ رَأسِي .. يا إلهَي مَا الذِي يَجري !! ..

كَشَفت الأُم سبينَا السَتَائِر ، و فَتَحت النَافِذة من أجلِ تَغيير أُوكسجِين الغُرفَة ، و ظَهَرت الغُرفة بِمن فِيهَا من كَادِرٍ من الراهِباتِ اليائِسَاتِ و هُنّ يُركِبن البِيانُو ..

تَركَ السَيد الصَغير أُستَاذهُ ، و جَرى إلى النَافِذة المُقَابِلة ، كُنتُ أُراقِبهُ من زَوايا النَافِذة بِمُكَابَرة ، لا أُرِيد أن يَكتَشف أمري و يَعلم من الذِي تَسكُن الغُرفة ..

صَوتُهُ جَاءَ كَالرَبيعِ بَعد فَصلِ الشِتَاءِ .. من بَعدِ أن فَتحَ النَافِذة و رأى نَافِذتِي قَد فُتِحت لِفُضولهِ ، سَقط قَلبي وَقتَها :

ـ عُمتِ صَباحاً سَيدَتي سبينَا ..

إلتَفتَت الأُم سبينَا إليهِ ، و إبتَسَمت لهُ إبتِسَامة أولُ مَرة أرَاهَا تَبتَسِم كَأنَ الأرضَ أشرَقت بِرُؤياهُ :

ـ أيُهَا الشَقي .. هَذا أنتَ ! ..

ضَحِكَ الفَتَى كَثيراً من مزاحِ الأُمِ سبينَا ، و لَكنهُ رَدَّ لَهَا المِزَاح قَائِلاً :

ـ لَقد تَعلمتُ الشَقاء منكِ ، و أنتِ مُعلمتِي ..

ـ أيُهَا الشَقِي .. كَيفَ هي دِراسَتُكَ ! ، هَل لا زِلتَ تَكتُبُ خَواطِركَ الأَدبية في أعمِدَةِ جَرائِد فِيينَا ! ..

إبتَسمَ الفَتى ، و بَدأت مَلامح الثِقة تَتَضَحُ على وَجهِهِ ، و لَكنهُ على مَا يَبدو أنهُ صَدِيق حَمِيم للأُمِ سبينَا ، و لو لا ذَلكَ لمَا دَار بَينهُمَا هَذا الحِوار الحَمِيم ..

ـ نَعم سَيدَتِي ، و غَداً سَوف يَصدر أول كتابٍ لِي من دَارِ سِفراس للنَشرِ بِعنوانِ :

مُذكراتِ بِيانُو ..

سُرت الأُم سبينَا بِالأمرِ :

ـ واااو .. هَذا أمر رَائِع ، سَوفَ أشَتري الكِتَاب بِالتأكِيد ، و سَأُعطِيكَ رأيي فَورَ الإنتِهَاءِ من قِراءتِهِ ، و كم عدد صَفحاته بِالضَبط ؟ ..

صَمتَ الفَتَى النَبِيل قَلِيلاً و بَدأَ يَستَرجع الذَاكِرة لِيعرف كم عَدَد الصَفحَاتِ :

ـ رُبمَا ثَمَانِينَ صَفحة .. و لكنِهَا البِدَاية سَيدتِي ..

ـ واااو هَذا أمرٌ مُثَير حَقاً ، بأن يكتُبَ فَتى بِعُمرِكَ كِتَاباً يكبُركَ سِناً..

كَانت المَسَافة بينهُمَا أمتَار منَ الهَواءِ الطَلقِ يتَبادلونَ أطَرافَ الصَدَاقة ، و كُنتُ وَحِيدة أتَجسسُ على أهدَافِهِ و أشَياء قَد عَرفتُهَا من لِسَانهِ ، و لَكنهُ لم يَرنِي أبداً ..

لَستُ مُتَطفِلة ..

و لَكن هَذا الفَتى شَدَّ إندِهَاشِي ! ..

أيُعَقل أن يَتَحدث مَع امرأة في دارِ الأيتَام ، و هُوَ الذِي لا يُقدَم لَهُ الطَعَام إلا في أطبَاقٍ مُذَهبة ، أنَا ابنة العَشرِ السَنواتِ التي كَبُرت كَرامَتِي في قَلبي قَبل أن أنَضُجَ وَجعاً ، كِدتُ أن أصَرُخَ في جَوفِ أحشَائِي :

ما الفَارِق بَينِي و بَينَ هَذا الفَتَى ..

فَتاً مُحَاطاً بِالإهتِمَامِ مُذ أن كُشِفَ لِي قَصرهُ قَبل سَنة تَقرِيباً ، إنَ الوَقتَ بِالنِسبة لهُ مَضبوط على حَسَبِ التَسلسُلِ الزَمنِي لِكُلِ مَا هُوَ مُهِم ، فَكُل سَاعة لَهَا إيقاع مُعَين ، الإفطَار ، و الغَداء ، و مَوعد إحتِسَاءِ الشاي ، و وَقت الدِراسَةِ ، كَالكِتَابة و القِراءة و المُوسيقى ، كُنتُ أُحصِي عَدَد المَراتِ التي خَرج فيهَا من قَصره ..

و لَكأنهُ قَليل الإختِلاطِ بأهَلِ الحَي ! ..

عِدة أشَياء أثَارت فُضولي ، و مع صِغَرِ سني أردتُ أن أكتشفها حتى لَو فَقدتُ كَرَامِتي ، إنَ مَا جَرى بَينهُ و بَين الأُم سببنَا جَعلني أنتَظِر الأُم حتى تَعُود إلى الغُرفة و أبدأُ أرميهَا بِالأسَئِلة ..

فَبعد أن رُكِب البِيانُو في إحدى زَوايا الغُرفة الشَاغِرة ، و نُظِفَ بِشَكلٍ جَيدٍ ، أغَلقت الأُم سبينَا النَافِذة ، و خَرجَ الجَمِيع ، إبتَسَمت في وَجهَي :

ـ حَسَناً حَبِيبتِي هِيلكَا .. هَذا البِيانو لكِ .. إستَمتِعي جَيداً بِالعَزفِ عَليهِ ..

صَمتُ مَلياً أمَامهَا ، و لم تَخرُج منِي سِوى كَلمَة وَاحِدة فَقط :

ـ شُكراً ..

لاحَظَت الأم سبينَا بِأنَ في فَمي كَثيراً مِنَ الكَلامِ ، و لَكن رُبمَا وَقتهَا لم يَكن من المسموح لإستِجوابها ، بسبب تَراكُمِ مهَامِ الدَارِ على عَاتِقِهَا ، مَسَحت على رَأسِي بِحنَانٍ :

ـ حَسناً عَزِيزَتِي هِيلكَا ، سَوفَ أعود إلِيكِ في وَقتٍ مُبكَرٍ هَذهِ الليلة ، نَحنُ بِحَاجة لنتَحدُث معا ، و أنَا إشتَقتُ للجُلوسِ مَعكِ ، فَكري بِالمَقطَعِ الذِي سَوفَ تَعزِفِينه لي هَذا المَسَاء ..

كَم هَذهِ المَرأة ذَكية ، و كَم تَتَحاشَى نَظراتِي التي لم تُفكِك شِفراتِهَا ، و دَائِماً تُلون الحَقائِق بِالضَحكِ و الإستِهتَارِ ، خَوفاً من الجَواب الذِي يُوقِعُهَا في مَأزقٍ مَا ..

بَعد أن خَرجت من الغُرفة و تَركت المكَانَ مَحشواً بِآلةٍ مُرصَعة بالأحجَارِ ، تَنتَظِرُ أصَابِعي ، كَانَ الزمَانُ وَاقِفٌ بِالنِسبة لَي ، و

عَقارِب السَاعَة تَمشِي ببطء ، و تَوتُر غَير طَبِيعِي ، إنهَا المَرة الأولى التي أُصَابُ بِهَا بِقلقٍ غَرِيب ..

مَا الذِي حَدث ! ..

لا أعرف أبداً ، و لَكن حَاولتُ التَخَلُصَ من هَذا التَرقُب بِالقَرَاءة و للأسَف لم أتَخلص منهُ ، كَشَفتُ السِتَار حَتى أعَود لمُهمَةِ التَجسُسِ ، و لَكن كَانَ سَادَة القَصرِ قد تَحولقوا حَول طَاوِلَةِ الغَدَاءِ لِتَنَاول وَجبَتهِم الغَير مألَوفة ..

أخَرجتُ دَفتَر المُذَكرات ، و القَلم المُذَهب و جَلستُ على سَرِيري ، هُنَاك شَيء وَاحد ألجَأُ إليهِ لإفِراغ هَذا الكَبتِ النَفسِي ، كَأن أشكو مَا في دَاخِلي للوَرق ، كُل جَوارِحي تَقولُ لِي وَقتهَا :

ـ أكتُبِي .. أُكتُبي .. أُكتُبي ..

هَذهِ الأسطُر لَيست أحجَار بِيانُو لتَلعِبي مَعها أيتُهَا الطِفلة ، إنهَا مَكَان للوَجعِ و الحِدَادِ ، خَطَ قَلبي في الصَفحة الثَانِية من المُذَكرة ، ثَانِي خَاطِرة لِي :

لمَا أنَا ..

الطِفلة ذَاتِ العَشَرِ نَغماتٍ ، التَي فَقدت شَهيتهَا للحَياة ، و لَكن الحَياة قَالت لي : لم تَري من الحَياة شَيئاً ! ، أجَابَت تِلكَ الطِفلة في دَاخِلي :

من أنَا !؟ ..

أنَا في هَذا الفنَاءِ المُستعر بِالشَرِ كَقشرةِ قَمحٍ لا يُؤبهُ لهَا ، وُلدتُ من رَحمِ العَدمِ ، و لَقبوني بِيتِيمة رَأسِ السَنة ، و ألقوا على كَاهِلِي إسماً لا أُحبهُ ..

كُنتُ أتمنى لو كَانَ إسمِي : سُوزان ، أو جُونِيت ، أو جُولِيا ، و لَكن هَذا العَالم و هَذا الكَون و هَذا المَكان لَا يُنَاسِبُ مَقاسِي ..

هَل أنَا مَجهُولة الوجودِ ! ، حَتى تَتَجاهلنِي مُربِيتِي .. !

لا أكتَبُ لأُثِيرَ شَفقة الأعينِ ! ، و إنمَا أضَعُ آثاراً دَاكِنة لِعَائِلة هي بِالأحرى عَائِلتي ، و لكَن لا أعرفُ عنهَا شَيئاً ...

أنَا من أكون ! ..

كُنتُ أكتُب و أبكِي ، و لَو قُلتَ لي : لمَا تَبكِينَ يا صَغيرة !؟ .. سَوف أقولُ لكَ : لا شَيء ، لأنَني لا أعرف لمَا أبكِي ..

إنهُ غُبار الحنين ، تَعثَرَ بِقلبي ، فَسَقطت الدُموع من غَيرِ إذنٍ منِي ، شَعرتُ بِأنَ هَذهِ الغُرفة جُزء من حَياتِي ، فِيهَا أسَراري الخَاصَة التي حَاولت أن تَعرفَهَا الأم سبينَا و لَكن أخفَقت مِراراً و تِكراراً .. أغَلقتُ مُذَكرتي ، و أعدتُ قلمِي إلى غِمدهِ .. و أكمَلتُ بَرنَامَجِي اليَومِي ..

إنهُ المسَاء ، و إرخَاء سِتَارِ اللَّيلِ على سَمَاءِ فِيينا ، أُحبُكِ يا أُمَ العَواصِمِ ببقاياكِ و حُطَامَ ذَاكِرتكِ و رُكَامَ مَاضِيكِ ، شَهِية بِملحِ آلامكِ يا سَيدةِ الكَمنجَاتِ العتِيقة ..

طُرقَ البَابَ من غَير مِيعادٍ ، لا أعلم من سَيكون ! ، لا أحد يَدخُل إليَّ ، لأنَني في خَلوة دَائِمة مع المُطَالعة :

ـ من خَلفَ البَاب !؟ ..

إنهَا صَوتهَا ، يتَسَربُ بِحَنانهِ من ثُقب المِفتاحِ عَابراً إلى قَلبي ، إنهَا هي ، حَبيبتِي و صَدَيقتي و كُل مَا أعرف في هَذهِ الحَياة :

ـ أنَا الأُم سبينَا .. هَل تَسمحينَ لي بالدُخول ! ..

فَتحتُ البَاب لَهَا :

ـ تَفضَلي ، بِكُلِ سُرور ، أنتِ لا تَحَتاجِينَ إذناً منِي ، هَذهِ الغُرفة لي و لَكِ ..

إحتَضَنتنِي ، كُنتُ بِحَاجة إلى أحدٍ يَحتضِنني ، كَان كُل شَيء مُنَاسِباً لِأي حَدِيث سَنفتَتحهُ بَعد هَذا الكَم الهائِل من المَشَاعِر البَارِدة ..

ـ شُكراً سبينَا ، أنَا مُمتنة لكِ ، لَقد كُنتُ في الفَترة الأخيرة قَاسِية معَكِ ، و قَد أسَأتُ التَصرف بِأسئِلتي الكَثيرة ..

ضَمتني مَرة أُخرى ، و رَاحت تُداعِبُ شَعري ، لا أعلم ما الذِي يُعجِبهُا في شَعري :

ـ لا عَليكِ هِيلكَا ، إنَّ هَذهِ الحَياة قَاسِية جِداً ، و عَلينَا أن نَتحمل بَعضنَا البَعض ، و الرَبُ أعطَانَا شَيئاً إسمهُ الصَبر ، و لأنَنَا نُحبُ الرب ، عَلينَا أن نَشكرهُ على هَذا العَطَاء ..

صَمتٌ غَريب ..

يَتَرصَدُ جَمِيع المُفَاجآت ..

مَاذَا تُخبئُ لِي تِلكَ الأمُ في قَلبِهَا ، و لما أَتت في وَقتٍ مُبَكرٍ إلى غُرفَتِي ! ، أشَعر بِأنَ هُنَاكَ مَا تخفيهِ في قَلبهَا ..

بَعد أن بَدلت الأمُ سبينَا ثِيابهَا ، خَرجت إلى المَطبخ المُشَترك في الطَابِق الذِي نَعيشُ بِهِ ، خَمس عَشَرة دَقِيقة بَتوقِيتِ التَوتر .. شَيٌء في جوفِي يَهتز ، يَقول لي بَين كُلِ دَقيقة و دَقيقة :

ـ هُنَاك شَيءٌ في الجَوفِ سَيسُركِ يا صَغيرة ..

و أنَا كَالمَجنُونَة أتَخبطُ بينَ أسَواطِ التَوتُرِ ، على هَذهِ الصَعقة هَبت رِياحُ العَاصِفة الثَلجِية ، لِتَختَرقَ نَافِذة الغُرفة من غَيرِ إذانٍ ..

و نَفث رُذاذ الثَلجِ مَاسَهُ البارِد على سَرِيرِي ، و لَكني عنِدما سَارعتُ بِإغلاقِ النَافِذة ، لاحَظتُ أنَ غُرفَة السَيد الصَغير مُضَاءة ، و أنَا أتَجَاهل مُراقَبة القَصرِ مَا بَعد العَشَاء ..

لأنَني دائِمَاً مضغوطة بِالقِراءة ، و ما إن وَقعت عَينِي على النَافِذة المُقابِلة لِنَافِذتِي ، حَتى إختبأ أحدَهُم خَلفَ الستائر ، سَقطَ قَلبي من صَدري خَوفاً ..!

و لَكن أنَجدتِنِي الأم سبينَا بِدخُولِهَا و بِيدهَا فُنجَانين من الشَاي ..

ـ أُووه .. رَباه ! ، لمَاذَا فَتحتِ النَافِذة يا هِيلكَا ! ..

بَدأتُ أُغلقُ النَافِذة بِسُرعة ..

ـ إنهَا رِياح العَاصِفة التي فَتحت النَافِذة ، أنَا لم أفعَل شَيئاً أبداً ..

وَضَعت الشَاي على الطَاوِلة ، و رَأت الخَوف على وَجهي ، فَإحتَضنتنِي بِسُرعة مُباغِته :

ـ لا عَليكِ إبنَتي هِيلكَا .. كُل شَيئٍ على مَا يُرام ..

جَلسَنا حَول الطَاوِلة مُتَقابِلتِين ، و في فَمهَا أحَادِيث حَان قِطَافُهَا ، فَبدأت بِالحَدِيث :

ـ إبنتي هِيلكَا ، هُنَاك أشَياء يَجبُ أن تَعرِفِيهَا قَبل مُغادَرةِ هَذهِ الدَار ، و حَقَائِق هيَ أمَانَة في عُنقِي يَجبُ أن أُخبركِ بِهَا !! ..

عِندمَا قَالت بِأنَني سَوفَ أُغَادِرُ الدَار ، صعقت من قَرارٍ لَست مُدرِكة لأَمرهِ !! ، إلى أينَ يَا رَباه ! ..

ـ إبنتي هِيلكَا ، أنتِ فَتاة كَبَقيَةِ الفَتَياتِ في هَذا المَكَان ، و لَكن سَببُ إهتمَامُنَا بِكِ هُوَ أنَ لَكِ ذِكرى مُؤلمة حَدثَت أمَامَ بَابِ هَذا المَيتَم ..

أخَذت الأُم سبينَا نَفسَاً عَمِيقاً قَبل أن تَبدأ بِالحِكَاية ، إنهَا الحَكَاية التي تتَحدثُ عنِي ، إنهَا اللحَظة التي سَوفَ تُخبرني عن أهَلي ، إلا أنَّ هُنَاك كثيراً من القِصصِ في هَذهِ الدَارِ على إختلافِ تَفاصِيلهَا لا تُحكى و لا تُكتَب إلا بِالدِمَاءِ من ألمِهَا .. أنَا التي كُنتُ

أتساءل طِيلة هَذهِ المُدة ، من أنَا ! ، و أين هُم أهلي ! ، و من الذِي أوصَلنِي إلى حَافَةِ اليُتم ! ..

و لَكن تَركتُ الحَدِيث للأُم سبينَا حَتى تُخرجَ مَا عندهَا من أسَرار :

ـ إبنَتِي هِيلكَا ، إنَ التِي أسَست هَذا المَكَان هيَ القِديسَة هِيلكَا ، التي قَدمت للإنسَانِية مَا قَدمتهُ من خدمة و تَعبٍ ، في اللَيلة التي قَبضَ الرَبُ فِيهَا رُوحَ القِدِيسة هِيلكَا في رَأسِ السَنة ، كَانت اللَيلة عَاصَفة بِالثَلجِ و الحُزنِ كَهَذهِ الليلة بِالضَبط ، إلا أذكُر أنَني خَرجتُ من هَذا المَكَان لأَذهب لأُخبرَ الحبر الأَعظم في فِيينَا عن مَوتِ الأُم الكَبيرة هِيلكَا كُوتش فَكَانت المُفاجَأة على بابِ المَيتَم ..

ـ إبنتِي هِيلكَا إنَ الرَبَ قَدمَ لنَا في تِلكَ اللَيلة إمتِحَاناً لنَا نَحنُ أُمهَاتِ المَيتم .. لَقد وَجدنَاكِ على بابِ المَيتَمِ و فَوقَكِ رُذاذ الثَلجِ ، قَد لَفَكِ من وَضَعَكِ على العَتَبة بِقُماشٍ من كِيسِ الطَحين ..

كُنتُ أستَمعُ لِتِلكَ التَفاصِيل ، التي رُبمَا تَراهَا بَسيطة ، إلا أنَنَي أرَاهَا عَظِيمة جِداً ، و مع صِغَر سِنِي كُنتُ أشعر بِمَا يشعُر بِهِ الكِبار ، فعلى آثَارِ عَزفِ الكَلمَاتِ و المُفاجَآت التي لم أعلم بِهَا عن مَاضِيي إلا الآن ، إنسَكَبَ الدَمعُ على خَديَّ كَالشَلال ، و لكن دُموعٌ بِلا أنَين و لا صَوت ، دَموعٌ صَامِته كَالأيامِ التي مَرت على

طُفولتِي و أنَا بَعِيدة عن صَندوُق مُغلق بِالحَنَانِ نُطلقُ عَليهِ جُزافاً إسم عَائِلة ..

إنَ المَشَهد الذِي جَعل من إعترافاتِ الأم سبينَا تَصمُت عن الحَدِيث ، هيَ الدُموع التي جَعلت بَينِي و بَينَهَا حَاجِزاً للإرتباكِ و عدمِ إكمَالِ تِلكَ القَصة المُؤلمة .. قُلتُ :

ـ أكملي سبينَا ..

وَضَعت الأم سبينَا وَجهَهَا أرَضَاً ، كَأنمَا تُخفِي جَريمة إرتَكبهَا المَاضِي ، من أفرادٍ مُكونَة من عَائِلة لا تَعرفُ عَدَدهُم و لا من يَكونونَ هُم .. !

ـ إبنتِي هِيلكَا ، حَبيبتِي الغَالية ، كَانَ ذَاكَ اليَوم من الأيامِ التي لا تُنسَى ..

قَاطعتُهَا بَصوتٍ كَالذِي يُريدُ حَقهُ من هَذهِ الحَياة :

ـ لمَاذا لم تَبحَثوا عن أهَلي ، ألم تَقولِي بِأنَني كُنتُ حَدَيثَة وِلادة ، و لا زِالت دِمَائِي على جَسَدِي ! ، إذا أهَلي كَانُوا عَلى مَقرُبة من هَذا المَكَان ..

كَسَرت سبينَا عَينهَا مُحاوِلة إخفاء إرتِباكهَا :

ـ إبنَتي هِيلكَا ، يا حَبِيبتَي ، لَقد كَانت هَذهِ المَدِينة كَومة من الرُكَامِ بَعد أن إنتَهت الحَربِ العَالمِية الثَانِية ، و كَانَ النَاسُ هُنَا يَقتَتلونَ

من أجلِ لُقمَة الخُبزِ ، و كثير من النَاس تَركوا أولادَهُم لأنَ الحَياة شِبه مَعدومة على هَذهِ الأرض ..

قَاطعتُهَا مَرة أُخرى ، و كُنتُ هَذهِ المَرة وَقِحة مَعها ، إلاَّ أنَ نَزعة يُتمِي لم تَتَحمل مَا تَسَمعهُ من حِكَاية أقربُ إلى نَسَجِ الخَيال :

ـ و لمَاذا لم تُخبِرينِي إلا بَعد هَذا السن ! ، أيُعَقل أن تَصمتوا طِيلة هَذهِ السِنِين عن هَذا الأمر ، أليسَت هَذهِ جَريمة أيتُهَا الأم سبينَا ! ، من سَيتَحمل هذا القَدر من اليُتم الذِي تَلقيتهُ طِيلة هَذهِ الفَترة منَ الزَمنِ !!.

حَاولت أن تُسكِتَني أو أن تُقَاطِعنِي الأُم سبينَا ، و لكن كَانت دُموعِي و غَضَبِي أمَامَ مُبرِراتهَا ضَعيفة و هَشَة ، و لكنها تَركتنِي أتَحدث حَتى صَمتُ قَليلاً :

ـ حَبِيبتِي هِيلكَا ، يَا بُنيتي الصغيرة ، أنت لم تَعرفِي مَا حَلَّ بِنَا من دَمَارٍ و جُوعٍ و فَقرٍ في تِلكَ السنِين ، رُبمَا أبوَيكِ لم يَكُن لَدِيهم ما يَسدُ جُوعَهم ، فلجأوا إلى هَذهِ الدَارِ لِحتَموا من عَارِ الجَوعِ أمَامَ قَسَاوة الحَياة في ذَاكَ الزَمن القَاسِي ، نَعم لَقد كَان أقسَى مما تَتَصورِينَ يَا بُنيتي .. و كَل من وَجدنَاهُم في نِهَايةِ الحَربِ العَالمِية الثَانِية من أطفَالٍ كَانوا على شَاكِلتَكِ ، و لم يُعرف آباؤهُم إلى هَذهِ اللحَظة ..

الإعتِراف ..

إنهَا أول مَرة أشعُر بِأنني قَوِية ..

و هَذهِ أول مَعركة إعتراف أستَمعُ إليهَا ..

كَانَ الوَقتُ بَارِداً ، و مُوازِياً لسَمفونِيةِ الكَلامِ ..

كَانت الأم سبينَا مُرتَبكة جِداً ، و تُخفِي خَلفَ إرتبَاكهَا إعترافاً آخَر ، و لَكن لا زِلنَا بِصَددِ المَاضِي ، و كَانت آماقي تَعصِرُ الدَمع بِصمتٍ ..

كَانَت كُل حَواسِي تَقولُ لِي آنَ ذَاك :

غَبية أنتِ .. لمَا لا تَصرُخِي ، لَمَا لا تَكسِري فِنجَانَ الشَاي الذِي أمَامَكِ ، لَمَا لا تَكونِي كَبقِيتِ الأطَفالِ ، و تَرفعِي صَوتَكِ أكثَر فَأكثَر .. لمَا لا تُجبرِيهُم على إحضَارِ أبوَيكِ !! .. لمَا هَذهِ الدُموع الصَامِتة .!!..

لَقد سَمعتُ الأم سبينَا ذَاتَ يَومٍ من المَاضِي تَقول : إنَ هَذهِ الفَتَاة طَبعُهَا أكبَر من سِنهَا ..

لَقَد نَضَجتُ مع الوَحدة ، و كَبرتُ من اليُتمِ ، فَكَانت الجُدرانِ أَكبَر مُواسٍ لِي ، و النَوافِذ المُطلة على تَطفُلِي الراعِي الرَسمِي لتَجسُسِي ، فَأسَندت روح أحَلامي على أغَصَانِ الصَمتِ ، لأنَ

الحَدَيثَ لن يُجدِي نَفعاً في دَارٍ كُل من فِيهَا مَعطوباً من دِفئِ العَائِلة..

حَاولت سبينَا أن تَنتَقِل إلى شَيءٍ هي أعلم بِهِ :

ـ حَبيبتي هيلكَا ، إشربي الَشَاي ..

كَانَ الشَاي يَومهَا حلو جِداً ، و من زِيادَةِ سُكرهِ إلاَّ أنني أشعُرُ بِمرارَتهِ ، و لَكن كُنتُ أُلاحِظُ أنَ غُرفَة القَصَرِ التي يتَلقى بِهَا السَيد الصَغَير دُروسَهُ يَخرُجُ منِهَا نُوراً خَافِت ، شَعرتُ بِالهُدوءِ ، و وَقعَ في فُؤادِي شَيئاً كُنتُ سَأوظِفهُ في غَيرِ مَكَانهِ ، إلاَّ أنهَا جَأت في وَقتِهَا ، بَينمَا كَانت تَرتَشفُ الأمُ سبينَا آخَرُ رَشَفة من فِنجَانَهَا ، نَطَقتُ بمَا يَدورُ في قَلبي :

ـ سَيدة سبينَا !! ..

وَضَعت فنِجَانهَا على الطَاوِلة ، و تَبسَمت كَالذِي إكتَشَفَ سِراً جمِيلاً :

ـ نَعم عَزِيزَتِي هِيلكَا !! ..

قُمتُ من مَكَانِي ، و أَحضَرتُ دَفتَرَ مُذَكَراتِي التي بَدأتُ أكتُب بِهِ آلامِي و شِدةَ شَوقِي لِحُلمٍ إسمُهُ عَائِلة ، و وَضَعتَهُ على الطَاوِلة ، مُحَاوِلاً أن أَمدَ الدَفتَر للأم سبينَا ، قُلتُ لَهَا :

ـ سَيدَتِي ، إفتحي هَذه المُذكَرة ..

أمسَكت بِدفتِرِ المُذكَراتِ ، و فَتَحت أول صَفحَة ، و بَدأت تَقرَأ ، كُنتُ أُراقَب عَينَيهَا و هُمَا تَتبعَانِ الكَلمَاتِ ، كَانت في عَينَيهَا لَمعة مُبَاغِتة ، و دَمعة أوشَكت على السَقوطِ ، و لَكنَهَا سَقطت رُغمَاً عَنهَا و عنِ الكَلمَات ، أغَلقت المُذَكرَة و وَضَعت وَجهَا على الطَاوِلة ، و بَدأَ سِينَاريو البُكَاء و النَحيب ، أسرعت و أَحضرتُ لهَا مِندِيلي ، و بُكُلِ رَحمة ضَممتُهَا ، فَزَادَ بُكَاؤهَا ، مَسَحت دُموعها :

ـ كَيفَ لَكِ أن تَكتُبِي هَذا الكَلامِ الذِي يَهزُ الجُدرانِ ، أيُعَقل طِفلة بِسنِكِ أن تَكتُبَ هَذا الكَم الهَائِلِ من المَشَاعِرِ ! .. كَم أنَا مُتَألمة من أجلكِ عَزيزَتِي هِيلكَا ..

ـ نَعم أنَا الذِي كَتَبتُ هَذا الكَلامِ ، و لَن أتَوقف عن الكِتَابة ، و لَكن أُريدَكِ أن تُسَاعِدِينِي على إيجَادِ أُمي !! ..

ـ أأأووووه .. عَزيزتِي هِيلكَا ، حَسنَاً إذا كَانَ هُنَاكَ أيةَ طَرِيقة أخَبرِينِي و أَنا سَوف أفعَل مَا بِوسِعَي !! ..

شَعرتُ بِسَعادة وَقتَهَا ، لأنَ الأمل لا زَال مَوجود ، و من هُنَا سَوفَ تَكونُ البِدَاية :

ـ أُرِيد أن أَكتُبَ في الصُحُفِ الأسَبوعِية في أعمِدَتِهَا ، مَقَالاتٍ بِعناونِ : كِيسَ الطَحين !! ..

إستغربت الأم سبينَا من الذِي تَسمَعَهُ من طِفلة ، كُل قَرينَاتِهَا يَحلمُن بِدُمَية أو مَا شَابهَ ذَالكِ ، إلاَّ أنَ الطَفِلة هِيلكَا أحَلامهُا أكَبر من مَا يَحلُمُ بِهِ الكِبار :

ـ مَا هُوَ هَدَفَكِ في ذَلكَ عَزيزتي الصَغيرة ! ..

بَدأتُ أشَرحُ لهَا خِطَتِي ، و مَا يَجولُ في دِمَاغِي :

ـ أُرِيد البَحث عن تِلكَ المَرأة التي ألقت بِي أمَامَ بابِ المَيتمِ و وَضَعتنِي في كِيسٍ للطَحِين ، أُرِيد أن أُخَاطِبُهَا لَعَلهَا تَعرِفُ مَكَانِي و أنَني بأمسِّ الحَاجَة لهَا ، و قَبل كُلِ ذَلكَ أُرِيد أن أَعرف لمَا رَمت بِي في لَيلة كُلَ كِلابِ مَدِينتَهَا تَتَضورُ جُوعَاً !! ..

سُرت الأُم سبينَا بِالفِكرة كَثيراً :

ـ رَائِعة الفِكرة جِداً ، إنَ مَشَاعَرِكِ و أنتِ تَكتُبِينَ غَلبت قَلمَكِ ، و أنَا أَصدقكِ القَول ، لم أَقرأ إلى الآن كالكلمَاتِ التي تكتبينهَا لأمِكِ و أنت تُنَاشِدِينهَا أن تَعود ..

كَانت شَهَادَةِ الأُم سبينَا عَظيمة جِداً في آدَائِي في الكِتَابة لأنهَا قَارِئة من العِيارِ الثَقيل ، فَهي التي تَقرأُ كُلَ لَيلة قَبلَ نَومهَا مَا يُقارب الثَلاثَ سَاعَاتٍ من الكُتِب الأدِبية على رُفِ مَكتبتها التي في الغُرفة:

ـ مَتى سَوف تَبدئين بِالبَحثِ عن صَحِيفة أسبوعِية !

ـ حَسنَاً عَزِيزَتي هِيلكَا ، غَداً صَباحاً سَوف أتَكلم مع الصُحف المَحلِية التي في دَاخِلِ فِيينَا من أجل هَذا العَرضِ الذِي قَدمتِهِ ، و لَكن أنَا بِحَاجة لِدَفتَر مُذكَراتَكِ من أجلِ أن يَروا هَذهِ التُحفَة الفَنِية التي كتبتِهَا ..

ـ حَسنَاً لكِ ذَلك ..

فَرحتُ لَيلتَهَا ، لأنهَا البِدَاية التي كُنتُ أحلم بِهَا ، أيُعَقل أن تَكتُبَ طِفلة بسِنِي في الصحف ، و تُصَارع بِهَا ذَاكَ الفَتَى المَغرور الذِي يَعَيش في قَصرهِ !! ..

أَرادت أن تَتَحدث مَعي الأم سبينَا في الشَقِ الثَانِي من جَلستَنا :

ـ عَزِيزَتِي هِيلكَا ، أنتِ عَازِفة رَائِعة على البِيانُو ، و هَذا الأمر لَفتَ إنتِباه الكَثير من رُوَادِ الكَنِيسة التي في المَيتَم ، و حَتى الغُرباء بَدأوا يَأتونَ إلى الكَنِسة لأنَ عَزفَكِ شَدَّ أوتَار آذَانِهِم ، و هَذا أمرٌ عَظِيم أن يَكونَ لَكِ عند الرَبِ عِنَاية خَاصة ، و هذهِ الليلة إكتشَفتُ بأنَكِ كَاتبة عَظِيمة مع أنَني أول مَرة أقَرأُ لكِ ..

كَانَ حَدِيثهَا جمِيلاً ، مَحموماً بِالأملِ و التَفائُلِ ، أول مَرة أسَتمعُ لأحدٍ يُصَارِحنِي عن ذَاتِي ، و كَانت الأم سبينَا سَعيدة جِداً بِالتَفَاصِيل التي تَتَحدث عنهَا ، شَعرتُ بِأنهَا تُمَهد لَشَيءٍ تُرِيد أن تُفَاجأنِي بِهِ :

ـ عَزَيزَتِي هَيلكَا ، إنَنَا في هَذا المَيتم لا نتَلقى المُسَاعدة إلا من شَخصٍ وَاحدٍ فقط ، هَذا الشَخص يُنفِق على جَمِيع من في المَيتم من طَعامٍ و شَرابٍ و كِسَاءٍ و دَواءٍ و حَتى ما يُسَمى أمورٍ هي أقَربُ إلى الرَفَاهَية ، إنهُ الرَجلُ الفَاضِل ذَاتِ الأصولِ الأمرِيكَية صَاحِبِ القَصرِ الذِي أمَامَ هَذا المَيتم ..

إنـهَا الصَدمة ..

كَمحطةِ قِطَار نَقِفُ في جَمِيعِ فُصولها ..

غَيرَآبهِينَ للتَقلُباتِ المَناخِية ، إنها صَدمة ، إنهَا لحظة من اللا وعي ، أن تَكتشفَ بأنَكَ في بَحبُوحَة من الرَخَاءِ و من خَيرات غير منطقية ..

أيُعَقل بِأنَ أتَذثَر بِخَيرات من كُنتُ أتَجَسَسُ عَليهم كُلَ نَهَارٍ و مَسَاء!! ..

إنهَا الأقدار ، تَجعَلُكَ تُعيد حِسَاباتِكَ الثُنَائِية ، و مَا تَبقى من ظُنون إلى سِكَكِ تَحسِينِ ظَنِكَ بِالآخَرِين ..

بَدأت الأُم سبينَا تعدُّ لِسَانَهَا للمَوضوعِ الأهَم ، ألا و هُوَ المَوضُوع الثَاني ، إنهَا عَالمة سِياسَية و إجتمَاعِية تَعرف كَيف تَرمِي بسنارتِهَا في وَاحَةِ قَلبكَ ، و كَيف تَجذُبُ بَقاياكَ إليهَا ..

ـ عَزيزتي هِيلكَا ..

إلتَفتُ إليهَا ، كَأنمَا أنتَظُر أمراً مَا :

ـ نَعم سَيدَتي !؟ ..

دَائِمَاً عندما كَانت تُمَهِدُ لِأي حَدِيثٍ ، تَرسُمُ في وَجهِهَا إبتِسَامة ، فَأنَا إلى الآن لا أعرفُ مَا المَقصُود بِهَا ، أيُعقَل أنَ الأَيام عَلمتهَا :

ـ هَل رأيتِ ذَاكَ الفَتى الذِي كُنتُ أتحدث مَعهُ بَعد ظُهر هَذا اليَوم !..

شَعرتُ بِأنهَا كَشَفت أمري ، و عَرفت بِأنَني أتَجسَسُ عَليهِم ، فَوقع قَلبي عندمَا ذَكرت الفَتى :

ـ نَعم رَأيتُ عندمَا كُنتِ تَتَحدَثِينَ مَعهُ !! ، ولَكن مَا الذِي يَجري !..

لَمَلمت الأُم سبينَا شَتَاتَ إبتسامتهَا ، و دَخلت في حَديثهَا المُهم على مَا يَبدُو ، و لَكن كِدتُ أن أُحَاول أن أُبرِرَ لهَا بِأنَني أنَا مُذنِبة لأنَني أتَجسَسُ عَليهِ ، و أنَ مَا فَعلتُهُ هُوَ خَطأٌ عَظِيم ، و لَكنَ المَوضَوع لم يَكُن كَمَا ظَننت :

ـ عَزيزتِي هيلكَا ، إن هَذا الصَغير يُدعَى بِالسَيد : كَافِين جُونس ، و هُوَ الوَرِيث الوَحِيد للسَيد الكَبير الذِي يَقوم بِآداءِ النَفقاتِ على هَذهِ الدَار و دُورٍ أُخرى في فِيينَا ، إنهُ رَجُلٌ فَاضِل جِداً ..

كُنتُ أستَمع لَهَا و كَأنَني لا أَعرفهُ ، أنَا التي أعرِفُ مَا يَدورُ في قَصرهم ، حَتى في أصغرِ الجُزئياتِ التي تَدورُ في قَصرهم :

ـ عَزيزَتي هِيلكَا ، إنَ السَيد الكَبير و إبنهُ السَيد الصَغير قَد حَضَروا القُداس الفائِت في الكَنِيسة ، حَيثُ جَلسوا في الكَراسِي الخَلفِية في الكَنِيسة ..

لَقد صُعِقتُ عندمَا سَمعتُ بهِذا الخَبر ، و قُلتُ في نَفسِي : كَيفَ لِرجُلٍ ثَري أن يَأتي إلى قُداسِ يَومِ الأَحدِ الذِي نُقيمهُ في كَنيسةِ المَيتم المُتَواضِعة !! ..

إلاَّ أنَّ الأُم سبينَا قَطعت سِلسَلة تَفكِيري الذِي حَلق بَعِيداً عن حَديثهَا:

ـ هَل أنت معي عَزيزَتِي هِيلكَا ؟ ..

إسَتيقظتُ من دُوارِ التَفكيرِ حِينهَا :

ـ نَعم سَيدتِي .. أكملي ..

ـ حَسَناً ، عَزيزتي هِيلكَا ، بينما كُنتِ تَعزِفِينَ على البِيانو ، كَانَ السَيد الكَبير مُستَمتِعاً جِداً بِأدائكِ ، و حَتى السَيد الصَغير إنبَهَر بِعَزفكِ الذِي جَعلَ منَ المَكَانِ وَهجاً من الَروحَانِية و النَور .. و أذكُر آنَ ذَاك بِأنَ السَيد الكَبير مَسَحَ دُموعَهُ بِمَندِيله ..

أنَا أسَتمعُ إلى الأُم سبينَا و أرَتجف ممَا تَقول ، إن هَؤلاءِ القَومِ من المُنتفِخينَ بِالثَراءِ لا يُمكن أن تُهزَ لهُم شَعرة ، أيعُقل بِأنهُم تَأثَروا بِالعَزف !! ..

ـ عَزيزَتِي هِيلكَا ، فَبعدَ أن إنتَهى القُداس ، أسَرعن إليَّ الرَاهِبات يُخبِرنَنِي بِأنَ السَيد الكَبير يَنتَظرني في مَكتَبِ الإدَارة .. أنَا لم أُصَدق بِأنَ السَيد الكَبير هُنَا ، كُنَّا دَائِمَاً من نَذَهب إلِيهِ ، و نَأخُذ

مَعَنا الأوراق التي نَحتَاجُ مَا كُتِبَ بِهَا للمَيتَمِ ، إنهَا المَرة الأُولى التي زَارنَا بِهَا ..

لم أعرف إلى الآن إلى أين سَوفَ تُوصِلنِي الأُم سبينَا بِحَدِيثهَا الذِي لم أفهم منهُ سِوى أنهُ أُعجِبَ بعَزفي ، و لَكن تَركتُ لهَا حُرِية الكَلامِ :

ـ عَزيزتِي هِيلكَا ، أسَرعتُ إلى المَكتب و ألقيتُ عَليهِ التَحِية و جَلسنَا حَول فِنجَانٍ من القَهوة ، لَقد كَان آن ذَاك مَسروراً جِداً لِزِيارتِهِ ، و لِشَيءٍ لم أعرفهُ ، أو رُبمَا أنَا أنتَظرُ أن يَتحدثَ بِهِ :

ـ كَيفَ تَسري أمور الدارِ أيتُهَا الأُم سبينَا !! ..

ـ كُل شَيء على مَا يُرام سَيدي الكَبير .. و الجَميع مَسَرور بِزِيارَتِكَ المُفَاجِئة ، و أتَمنى أنَكَ قَد رَأيتَ مَا يَجعلكَ سَعِيداً أثنَاءَ زيارتكَ .. !

كَانَ السَيد الصَغير يَتبسم بِعَفوِية على غَير العَادة التي كَان عَليهَا عندمَا ألتَقي بهِ ، رُبمَا بِحضُورِ السَيد الكَبير يَتَغير و يتبدل إحتراماً لوجودهِ ..

أول مَرة يَسأل السَيد الكَبير هَذا السُؤال :

ـ هَل هَنَاك مَا يَنقصُكم في الدَارِ ، أو أنكَم تُخَطِطُونَ لِشَيءٍ و مُحرجَين بِالحدِيث عنهُ رُبمَا لإرتِفاعِ ثَمنهِ !! ..

كُنتُ مُستَغربة و مُتوترة ، كَيفَ سَوفَ أُجِيبهُ بِأنَ الدَار يَنقصها تَرمِيم ، كَتَبديلِ النَوافِذِ ، و طِلاءِ الجُدرانِ ، و تَغييرِ الأبوابِ ، و حَتى بِحَاجة إلى دَرَاجَاتٍ لِقَضَاءِ حَاجتنَا المُستَعجلة ، و عَربَة خُيولٍ لِجَرِي مَرضَانَا إلى الأطباءِ ، و خَمس خَادمَاتٍ بِسَببِ تَراكُمِ المَهَامِ في الدَارِ ..

ـ نَعم سَيدِي ، نَحنُ بِحَاجة إلى الكَثير من الأُمورِ التي تَنقصنا في الدَارِ ..

و بَدأتُ أَعدُ لهُ مَا نُرِيد ، و كَانَ مُرافِقهُ يُسَجل على دَفتَر السَيد الكَبير تلكَ الطَلباتِ التي جَعلتني أتَوتَر و أَتصَبَبُ عَرقاً ..

ضَحِك السَيد الكَبير بَعد إدلاءِ مَا نُرِيدهُ منهُ من مُسَلزمَاتٍ ، و سَقطَ قَلبي خَوفاً من أن تَعدَيتُ حُدودِي في مَا نُرِيد ..

رَأى ذَلكَ القَلق على وَجهِي و قَال :

ـ لا تَقلقِي أيتُهَا الأم سبينَا ، كُلَّ الذِي طَلبتِهِ سَوفُ يُنَفَذ ، و لَكن بِشَرطٍ وَاحد !! ..

عِندمَا وَضَعَ هَذا الشَرط تَمسَمرتُ في مَكَانِي :

ـ لَكَ مَا تُرِيد سَيدي ..

حَسَّن من جَلسَتهِ ، و حَشَى غِليونهُ بِالتبغ ، و نَفثَ سُمومهُ للشَرطِ الذِي سَوفَ أعرفه :

ـ سَيدَتي سبينَا ، قَبلَ قَليل إستمعتُ لِعَزفِ البِيانُو من فَتاةٍ جَمِيلةٍ جداً ، هَذا العَزف أَثَرَ بي جِداً ، أُرِيد هَذهِ الفَتاة أن تَأتيني كُلَّ يَومٍ بَعد العَصر كَي تَعزِفَ لنَا في المَنزِل ، سَوف أُصَارِحَكِ القَول ، إنني أحبَبتُ هَذهِ الفَتَاة جداً ، و شَعرتُ بِأنهَا قِطعة مني ..

مَا إسمهَا ! ..

كِدتُ أن أَقولَ لهُ : إن إسمهَا فِيينَا ، و آخر مَلامح الدَمَارِ ، إن إسمَهَا بِسنِ شَجرةِ المِيلادِ ، و زِينةِ العَيدِ ، و الهَدَايا المُغَلفَة بِالأشرطَة اللَمَّاعَة ..

ـ إنَ إسمَهَا هِيلكَا يَنَاير ..

صَمتَ السَيدُ فَرِحَاً ، و حَلقَ خَيالهُ إلى اللاَمنطِق ..

كُلنَا جُنَاة للخَيالِ عندمَا نُغَيب مَهَام العَقلِ ، فَإنَ العَواطِفِ إذا أخَذت مَكَانَ المَنطِقِ ، فَإنَ المَنَطق يَتحول إلى هَذيان ..

ـ إسمُهَا جَمِيل جِداً .. من الذِي أطَلق عَليهَا هَذا الإسم ، و لمَا أضَفتُم لهَا صِفة ينَاير !! ..

شَعرتُ بِالإرتِباك و السُرور في الوَقتِ ذَاتِهِ :

ـ أنَا من وَجدتُهَا أمَام المَيتم و كَانت حَدِيثة وِلادة ، و أَنا التي أطَلقت عَليهَا هَذا الإسم فَي سِنهَا من سنِ نِهَايةِ الحَربِ العَالمِية بِالضبط .. و أمَا الإسم فَإنَني رَأيتُ في ذَاتِ اليَومِ الذِي مَاتت بِهِ الأُم الكُبرَى هِيلكَا كُوتش ، كَانَ مُنَاسِباً أنَ يَكونَ إسمهَا عَلى إسمِ الأُمِ الكُبرى ..

لَقد تَألمَ جِداً السَيد الكَبير بِهَذهِ القصَة المُؤلمة :

ـ أووووه .. يا صَغيرتي .. كم تَألمت هَذهِ الطِفلة !!

ـ نَعم يا سَيدي .. هَذهِ الطِفلة لهَا خُصوصِية في هَذا المَيتَم ، فَهي لَيسَت كَبَقيةِ الأطَفال ، لأنَهَا كَثيرة القِراءة و المُطَالعَةِ .. و لَهَا سِرٌ و طَاقة غَرِيبة فهي سَرِيعة إلتِقاطِ المَعلوماتِ .. كَما أنهَا عَازِفة مَاهِرة .. فَأنَا أعَيشُ مَعَهَا في غُرفَة وَاحِدة في الطَابقِ الخَامس ، إنها كإبنتي تَمَاماً ..

تَنحنحَ السَيد الكَبير و أسنَدَ ظَهرهُ جَيداً :

ـ هَل بَاب التَبنِي مُهيأ ! ..

لَقد صُعقتُ من سؤالهِ ، و كَأنهَا لَطمة تَلقِيتُهَا على القَلب :

ـ نَعم سَيدي هُنَاك كَثير من الأطفال يَعيشون وسَط عَائِلاتٍ داخلهَا شِبه ممُتاز ، و هُنَاكَ كثير من الفَتَيات مُؤهَلات للتَبنِي ..

كُنتُ أحَاولُ أن أذَهبَ بِهِ إلى حَديث آخَر ، حَتى لا يَسألني عن تِلكَ الطِفلة مَرة أُخرى ، مع أنَني أُرِيد لهَا حَياة خَارِج هَذهِ الدَار أفَضَل من هَذهِ الحَياة التي يَكسوهَا البُؤس .. بَدأتُ أخَافُ عَليهَا ، و دَائِمَاً كنتُ أُخفِي إسمهَا أمَامَ العَائِلاتِ التي بِحَاجة لأطَفال ، و لَكن السَيد الكَبير أتَانِي إلى هُنَا من أجلِ تِلكَ الفتَاة بِالتَحدِيد :

ـ سَيدة سبينَا .. رُبمُا تَستَغربِينَ من سُؤالي على تِلكَ الطِفلة ، لم تَكُن في مُخَيلتِي و لا أعرفُهَا ، و لَكن إبنِي أخَبرني عنهَا عِدةَ مَرات ، فأحَببتُ أن أعرِفهَا بِشَكلٍ جَيد ، و الآن أُفكرُ أنَا و زَوجتِي

بِأن تَعيش تِلكَ الطِفلة مَعنا .. هَذا طَبعاً إن لم تُعَارِضِي !! .. هَا مَاذَا قُلتِ سَيدة سبينَا ؟؟ ..

خَرَّ قَلبي من صَدري ، و لَكأنهُ قَال لي بِأنهُ سَوف يَقتَطع عُضواً من جَسدِي ، و إن رَفضتُ الآن سَوفَ يَمنع منَا المُسَاعدات :

ـ هَذا شَيء يُسعِدنَا بِأن يَكون لَديكُم هَذا القَلب الإنسَانِي سَيدي ، و لَكن يَجب أن أُخبر الطِفلة ، لأنَ الطِفلة تَفكيرهَا يَفوق تَفكير الكِبار ، و أَخَاف أنَ لا تُوافق ..

تَدخَل السَيد الصَغير قَائلاً :

ـ أنَا سَوفَ أُقنِعُهَا ، نَحنُ الأَطفال نَعلمُ مَا يَجري في قُلوبنَا ..

ضَحكَ السَيد الكَبير من بَراءةِ إبنه الصَغير و حرصه على مَصلحَةِ العَائِلة و قَرارَاتِهَا :

ـ بُنَي الصَغير كَم أنتَ رَائِع ، سَوف تَقوم السَيدة سبينَا بِهذهِ المُهمة و أنَا واثِق بِأنهَا سَوفَ تُقنِعُهَا ، لا تَقلق سَوف يَكون كُل شَيء على مَا يُرام ..

كُنتُ مُرتَبكة جداً و قَلقة من مُستَقبلٍ جَمِيل سَوف تَتَعثرُ بهِ الطِفلة المسكينة :

ـ سَوف أُحاوِلُ مَعَها ، لا تَقلق سَيدي ، و إن رَضيت بِذلكَ فمن دَواعِي سُروري ..

ذَهب السَيد الكَبير بِرفَقة إبنهِ على أملٍ أن يَكونَ عِندهُم الخبر الذِي يَسُرهُم في اليَومِ التَالي ، و أُطبقت الأبواب خَلفهُمَا ، و أُطبِقَ صَدَري خَلفَ صدى الضَبابِ ..

ـ نَعم إبنتَي هِيلكَا مَا رَأيكِ بِهَذا الأمرِ !! ..

لم تُصدق الطِفلة مَا الذِي يَحدُث ، أَيعُقل أنَ تَنتَقل إلى القَصرِ الذِي تَتَرصدهُ و تَتَجسس عَليهِ أغلب أوقات النهَارِ ، فَصُعِقت من هَذا الخَبَر ، كَما أنَ السَيدة سبينَا خَيرتهَا بينَ الذَهابِ و البقاءِ ..

و لَكن السَيدة سبينَا فَكرت بِالأمرِ مَلياً ، و تَمنت أن تَذهب و تَعيش في القَصرِ خَوفاً على مُستَقبلهَا ، لأنَ الأيَام التي قَضَتهَا في المَيتَمِ أكَبر من كُلِ ألمٍ و وَجعٍ .. بَدأت الأُم سبينَا تُقنعُ الطِفلة و تَحاول مَعها ، إلا أنَ الطِفلة كَانت تُباشِرُ الصَد بِالصَمتِ و المُكَابَرة حُباً بهَذا المكَان الذِي طَوت طُفولةَ يُتمهَا بهِ :

ـ حَبيبتِي هِيلكَا ، هَذا المَكَان لا يَصلحُ لَكِ ، أنتِ تَمتَلكِينَ ذَائِقة فَنِية بِكُلِ شَيءٍ ، و المُستَقبل أمَامَكِ طَويل جداً ، فَكري بِالأمرِ مَلياً ..

كَانت الطِفلة يَنتَابُهَا صَمتٌ لا أعرف مَا يَدورُ خَلفهُ ، كانَ ذَاكَ الصمت يَجعلني أَشَدُ قَلقاً و تَوتراً ، و لَكن الطِفلة الذَكية كَانت مُحَاطة بِنَظراتِ التَطفُلِ دَائمَاً ، و مَحلٍ للتَرحَيب لِكُلِ زَائِرٍ إلى المَيتمِ ..

ـ عَزِيزتي هِيلكَا ، سَوفَ يَكون لَكِ مُستقبل جَمِيل بينَ تِلكَ العَائلة الراقِية ، و أنَا مُتَأكِدة بِأنكِ سَوفَ تَجدِينَ أُمَكِ التي قُلتِ لي بِأنَكِ سَوف تَبدئين بِالبَحثِ عنهَا عَبر الصُحُفِ ، إنهم عَائِلة مُنتفخة بالثَراء ، إستَغلي الفُرصَة و دَعِيهم يَبحثونَ لكِ عن أُمكِ و لَن يَكونَ أمراً صَعباً ..

سَقط من عَينهَا دَمعة الطِفلة المسكينة ، و نَظرت إلي بِقوة ، كَانت نظراتها كالسَكاكَين :

ـ و أنتِ !! ..

أُحَاولُ أن أُلملمَ شَتاتَ تَوتُري :

ـ عَزيزتي هِيلك .. أنَا مَعكِ و بِجَانبكِ ، و دَائمَا سَوف نَبقى مَعاً ..

شَعرتُ بِأنَ قلبهَا بَدأ يَلين .. شَعرتُ بِأنهَا وَافقت ، و لَكن كَيفَ لِي أن أترُكَهَا ، ذَاكَ المَلاكُ الذِي شَاطرَ هَذهِ الغُرفة سِنيناً ! ، أيُعقل أن يَتحمل قَلبي وَداعها !! ..

يَا لي المسكينة !! .. فَكلانَا مَساكِين ، هي التي تَبحثُ عن حُضنٍ يأويهَا ، و يشفي طعنات يُتمهَا ، و أنَا التي أبحثُ عن إبنة أُسندُ عَليهَا كُهولتي و تعب الدهر ..

و لَكن سَأتحمَل الفراق .. لأجلهَا هي ..

مَاذا تَعني لك الحَقائب !! ..

إنهَا بدَاية الألم ، أو لَعلها بداية البحث ..

إنهَا الدَفئُ الوحيد ، و الوَسيلة الوَحيدة لِتُعِينَكَ على المَقصَود ، و كُلاً لَنَا وِجهتهُ إلى اللا خَيال ، أمعنِ النَظَرَ جَيداً للكَراسِي التي تَجثَمت بِأحمالهَا و أَحلامِهَا ..

الكُلُ يَترقَب العَد التَنازُلي لأول رحلة إلى الغَياب ..

نَغيبُ نَعم ..

و لَكن لمَاذَا !! ..

لأنَنَا وُجدنَا على هَذهِ البَسِيطة لِتَكونَ مهمتنَا هي التَحري ، و الوصُولَ إلى مَنطق أهدافنا اللا مُتنَاهية ، فَأنتَ كونكَ أنتَ بُح لِي بِمَا يُدليهِ عَليكَ قَلبكَ سَأقولُ لكَ عن مَا تَبحث ، و لأنَنَا أحلامنَا مُقَيدة بِحَقائِبنَا فِإنَّ الوجهاتِ مُتَعددَة و القَبرُ وَاحِدٌ ..

سَأُخبِرُكَ من أنتَ ..

أنتَ الوَحِيد .. الوَحِيد .. الوَحِيد ..

ذُو الحَقائِب الفَارِغة من الذَاتِ و المَلذَاتِ و المَسَراتِ ، أنتَ المَاكِث تَحتَ عَقارِبِ الزَمَانِ لِتمتَص سموم الوَقت بكُلِ مَذاقاتهِ و لَطمَاتهِ .. لن تَتَذوقَ مَا تُقَاتلَ من أجلهِ إلا بَعد عُسرٍ بالمسير ..

هُنَاكَ من إختَصرت عَليهِ الحَياة سِكَكهُ البُخَارِية ، فَقَطعت عَليهِ الطُرقات ليستَريح ، و لَكن من هُم ! ..

أؤلائِكَ الذِين تَوسَدوا القُبورَ ، و إختَصروا خَطواتَهُم إلى الخَيالِ .. إكتَفوا بِالترابِ و السرابِ .. و جَعلوا من التَوابِيت مَأوى لَهم ... هُم وَحدهُم من عَلِمَ بِأنَ هَذهِ الحَياة مُهلِكة حدَ التعب ..

فَمنهُم من إكتَفى بِصَرخة وَاحِدة بَعد خُروجهِ من فَرجِ أُمهِ ، و منهُم تَجشَمَ بِصَرخةٍ وَاحِدة و كَفتَهُ أولَ شَهقة في هَذهِ الحَياة ، و منهُم من أتَاهُ المَرض حَائِمَاً قَبلَ الفِطَام ، و منُهم من رَكلَتهُ الأيامِ إلى مَا بَعدَ الثَمَانِين ..

لَو سَألتهُ ذَاكَ الثَمانِيني :

مَاذا جنيتَ من هَذهِ الحَياة .. لَصَمتَ تَارِكَاً على خَدَيهِ مَجرى للدُموعِ .. هُوَ الذِي لا يُرِيد أن يَتَحدث عمَّ في أحشَائِهِ من خَرابٍ ، لا يُريد إخراج ذَاكَ الدَامر البهيج .. أيُعَقل أن يكونَ دَمَاراً بَهيجاً..!!

لنَ أكتُبَ لَكَ مَا هُو الدمَارِ البهيج ، فَعندمَا تُوصلكَ أحلامكَ إلى أعتابِ الثَمانِين سَوف تَعرفَ الإجَابة ، لأنَ الحَدِيثَ قَبل الفنَاءِ عِبارة عن غُبارٍ نُلملمُ ذَراته في قَلبِ العَواصِفِ الطَاحِنة ..

سُحقاً لحياة .. لم يَصل صَاحبُهَا إلى مَا يُريد .. !!

كُلنَا في حَضرة الحَياة سِكَكاً حَجرية نُطحنُ تَحت رحاهَا بصَمتٍ مُطبق ، و نُواسِي قُلوبنَا بِالأنَين ..

إبكِي سَيدتي على مَا فَاتَكِ من العُمرِ ، و اعلمِي بِأنَ الدُموعَ لن تُعِيدَ تَجاعِيدَكِ إلى مَقاعِدَ الصِبا ، إبكِ يا حَامِلَ الشَيبِ في مَسيرك إلى الوَهِم فَإنَ الجَزَع لِن يُرمم أرصفةَ فُتُوتكَ !! ..

تُعِيدنِي القَافِية إلى الحَقيبة ..

خَمس مسَرحَياتٍ لشكسبير ، و دفتر مُذكرات ، و قَلم ذَهبي ، و فُستَانَانِ حَرِيرِيانِ ، و أرَبعةِ أشَرطة مُلونَة للشَعرِ ، و دَفترَ نُوتَاتٍ للمُوسِيقى تُطوى في حَقِيبة ..

كُل أُمهَاتِ المَيتمِ و مَا فِيهَا و مَا عَليهَا من خَدمٍ و حَشَمٍ و طُهَاتٍ و سَائِقِي عَرباتٍ إجتمعوا لوداع هِيلكَا يناير ..

إنَها ذَاهِبة ، لَيس إلى القصر ، و إنمَا لرحَلةِ البَحثِ عن أُمهَا ، تِلكَ السَيدة التي لم ترهَا و التي أطلقت عَليهَا :

سَيدة أكياس الطَحِين ..

قَبل حَزم أمتعة يُتمهَا ، فَتحت دَفتر مُذكراتها و كَتبت :

مَاذا تُريدينِي أن أَقولَ لَكِ ! ..

أُمي مَثلاً .. !!

حَسنَاً .. أُمي الغَريبة أنَا إبنتكِ تلكَ التي رأيتها ، و لم تَركِ ، اليَوم سَوف أعيش في قَصر السيد الكَبير ، آثَرتُهُ عَليكِ ، لا أعلم إن كُنتِ تَستَحقِينَ الشَفقة ! ، و لكَن أعلم بأنَكِ تَخليت عني و أنَا في أمسِ الحَاجة لكِ ، هَل أعجبكِ شَفقةِ الناسِ عليَّ ! إنهُم الطَيبون الذِين لن أستَطيعَ أن أُوفيهم حَقهُم ، بمن أبدأُ بالأم سبينَا ! ، أم بالسيد الكَبير الذِي لا أعرفُ طيبتهُ بَعد ! ، أم بالسيد الصَغير الذِي لا أعرفُ مَا يَدور في قلبه !! ..

حَسناً أمي ، إذا قرأت هَذهِ الرسَالة ، فَإنَ عنواني قَريب ، بَجانبِ المَيتمِ الذِي تركتني للثُلوجِ و الرُكَامِ و الدَمارِ ..

عمت مَساءً يا سَيدة أكَياسِ الطحين ..

أُحبُكِ أُمي ..

بَينمَا كَانت تَنهطلُ قَدماهَا من الدَرجِ اللولبي الذِي يَقودهَا إلى الطَابقِ الأرضَي للمَيتم ، كَانَ الجَمِيع يَنتَظرُ نُزوَلهَا ، إنهَا الطفلة المَلائِكَية ذَات العُيونِ الخَضراءِ و الشَعرِ الأشَقرِ و الفُستَانِ الوَردي القَصير .. صَاحبةِ الجوارِبِ الصَفراءِ ، و الصَمتِ المُباغتِ لأي صَمتٍ بَعدهُ ، و الخَدانِ المُحمرانِ بالخَجلِ ..

إنهَا هِيلكَا .. صَاحَبة الأَصابعِ التَي تَعزفُ للرَبِ كي يُريحَ المُتعَبونَ قُلوبَهُم من المَسَيرِ إلى حَاجَتِهم ، إنهَا صاحبة القَلمِ الذِي

أبكَى مَلايينَ البَشَرِ في كُلِ أنحَاءِ الأرضِ .. تلكَ الفتَاة التي كَانت و لا زَالت تُخَاطبُ أُمهَا في كُلِ صُحفِ العَالم ، و كُلِ رِواياتهَا و كُلِ مَعزوفَاتهَا ..

كُلُ من في المَيتمِ يَبكِيهَا و يَبكِي على رَحيلهَا ، إنهَا بِسنهَا و جَمالها كَانت أحد مُؤسَسي هَذا المَكَانِ ..

الكُلُ سَقطَ قَلبه حَالَ نُزولهَا إلى الطَابقِ السُفلي ، كَانت شَهية كَأولِ ثُلوج السنة ، بيضاء نَقية كَمرُونَةِ الحَرِير ، لم تَتَصنَع يَوماً تلكَ الطفلة و لم تَعرف التَنكُر ، لأنَ مَا في قلبها كَانَ يَبدو على مَلامحَها ..

كَانَ السَيد الكبير و السيد الصَغير يَنتَظرانِ مَعاً أمَامَ الدَرجِ و كُل من في المَيتم بِجَانِب البَابِ الدَاخَلي :

ذُهلَ السيد الكَبير عندما رَآهَا عن قُرب و هي تَهبط كمَا تَهبط المَلائكَة من السماءِ ، و كَانت دُموع الأم سبينَا تَشي بِالفَاجعة التي فَقدت فِيهَا إبنة من بَناتِهَا ، و لَكنَ القَصر و مَا فِيه من خَدمٍ و حَشَمٍ يَنتظرونَ سَيدتهم الصَغيرة التي لم تُغَير إسمهَا لأنهَا تُحبهُ و تُحب من أطلقت عَليهَا هَذا الإسم ..

إنحنى السيد الصَغير لها مُحَاولاً تَقبيل كفهَا ، و لَكنهَا أُحرجَت جِداً بِشَيءٍ لم تَعتد عَليهِ ، إنهُ عَالمهُم المُنافق ، ذَاكَ العَالم

الأرستَقراطِي الذِي قَرأتهُ في كُتبِ العَمالقة من الأدب و لم تَعشهُ يوماً ..

فابتسمَ السيد الكَبير لنقاءِ قلبهَا و صَفائهِ ..

حَتى لا تتعثَر بالحياة ..

أنصحكَ أن تَكن مَرِناً بِالقَدرِ الكَافِي ..

إرتداء الأقنعة لن يَنفَعكَ بِشَيءٍ ، فَكُن طُفولِياً بِكُلِ تَفَاصيلكَ ، و لَكن إن تَعدت طُفولتكَ على حُدودِ الآخَرين ، فَأنَا أُبشِرُكَ بِأنَكَ أصَبحَتَ شَبحاً ..

طُوبى لأولئكَ الذينَ لا تُبدلُ طَبائعهُم الأيام ، الذِينَ عَرفوا دَربَ الحَياة و سَاروا على أرصَفَةِ الطَمَأنينَة و تَوقَفوا على مُشَاةِ الرَحمة كَي لا تَدُوسَهُم عَربة الَشر ..

هيَ وَحدَهَا الأَيام من تَضَع القُلوبَ على مَحَكِ إختبارهَا ، و تُجلي ضَبابَ النَوايا ، لِتَكشِفَ لَنَا أُنَاسَاً كَانوا بِالنسَبة لنَا شَمسَاً نَستنَيرُ بهَم، و اليَوم أضحوا لَنَا شَمَاعَة للنَدمِ لأَنَنَا عَرفنَاهُم ..

لا تَندم .. فَقط عَليك أن تَتَدارَكَ الوقوعَ في الحُفرة مَرةً أُخرى ، لأنَ اللبيبَ لا يُلدَغُ من خَلفهِ مَرتِين ..

أمَامَ مَشهدِ أولِ سِينَاريو لِبدَايةِ حَياةِ جَديدَة تُحملُ حَقيبة هيلكَا بِعنَاية ، كُل دَلائلِ الرَحيلِ قَد بَدت على مَلامحها ، و كُل من في الدَارِ شَعرَ بِأنَ هَذا المَلاك إن رَأى النعِيم يوماً فَلن يَلتَفتَ خَلفهِ ..

أشَياء في لظَى النَفسِ تَقرأُ مَا في عَينَي هِيلكَا ، حَيثُ تَقول :

أنَا الرَاحِلة عبر المَسَافاتِ ، الجَارِية خَلف حُطامِ أمٍ لا أعرفُهَا ، التي إتَخذَت رِمال اليُتمِ مَمَشَاً ، حَافِية أنَا بِكُلِ عتَادِي ، و لاهِثَة أجُرُ حقائِب الضَعفِ :

أنَا كُلِ المُسَافرين ..

و جَميع مَحَطَاتِ العَابِرين ..

و حَتى أنَا كَافَةِ المَطاراتِ و القِطاراتِ و أحلامِ العَائِدين .

أنَا تِلكَ الصَامِتة التي يَغلي في قَلبي بُركَانٍ من حَنِين ، و من يَسَمعُ ما في أحشَائِي ، إلا المُتألِمين ..

لا نَحتَاج إلى عربة كَي تَجُرَ هَزائمنَا و حَقائبنَا ، حَملَ الحَقِيبة خَادِم القَصرِ الكَبير السَيد جُونس و رَكبنَا عَربة مهابة للعَظمة ، مَع أنَ القَصر يَبعُد عِشرينَ خَطوة مَشياً على الأحلامِ ، و لكن هَذهِ الوجوه المنعمة لم تَعتد المَشي سَيراً على الأقدام ، رَكبتُ بِصمتٍ ، و جُرت العَربة المُزخرفة بورقِ الذَهبِ مَا يُقارِب عَشَرةَ خَيولٍ بِيضاء ..

أُحبُ النَقاءَ على صُورة خَيل ، و أكرَهُ عُبوديتهَا ، لأنَ هَذَا الجَمَال بِعيونِهِ الوَاسِعة مَكَانَهُ الحُرِية التي لا يَعرفُهَا هَؤلاءِ النَاسِ أصَحاب الطَبقة التي لا تَرى مَا يَجري تَحتَهَا ..

أيُعقل أنهَم رَأوا مَا حَولهُم من دَمَارٍ ، نَعم إنهُم سَاعَدوا ما فِيهِ الكِفاية ، هَذهِ العَائِلة الأمرِيكِيةِ الأصَلِ ، التي أَتَت من خَلفِ البحَارِ بُغَية الإستثمَارِ جعلت من هَذا الوَطن مَسكَناً لِهُم ، لَقد عَرفتُ آنِفاً بَعدَ مُدة طَويلة من الزَمنِ بِأنَ السَيد الكَبير إفتَتحَ مَا يُقارِبُ أرَبعَين مَصنعاً ، و وظفَ فيهَا آلافِ البَشرِ حَتى يُخرج هَذهِ البِلاد من الضَائِقة الإقتصادية ، و كَونهَا مِضمَاراً جَدِيدَاً للإستثَمَارِ بَعد الحَربِ العَالمِية الثَانِية ، أصَبحَ هَذا الوَطن مَكَانَ تِرحَابٍ للأغنِياء كَي يُعِيدوا بناءهُ ..

وَصَلت العَربة بِأقلِ من ثَلاثِ دَقائق ..

إنهُ البريستِيج الرسمي للبَهرجة ، و لِيلفتُوا لُعَابَ الضِعافِ على بَريقِ ثَرواتِهِم ، إنهُم أُنَاس من كَوكَب البَهرجة و الأَهواء اللمَاعة .. فَأنَا لَستُ من هَؤلاءِ النَاسِ و لا أعرف كَيفَ يَعيشُونَ إلا عَبرَ إكتشَافَاتِي من النَافِذة التي تَفضَحُ تَنقُلاتِهم من حُجرة إلى حُجرة ..

هَا هِي وَصلت العَربة .. فَتحَ الخَدم الأبواب ، و كَانَ جَمِيع من في القَصرِ من خَدمٍ و حَشمٍ يَرتدونَ الثياب ذاتهَا بكُل أنَاقة مُصطفُونَ من الجَانِبِ الأيمنِ و الأيسرِ و السَيدة الكَبيرة ، تِلكَ الأُنثَى الجميلة التي لَيسَ لهَا عمل في هَذا القَصرِ سوى مرآتهَا و مُقتنياتهَا من المُجوهراتِ و الفَسَاتِين المُرصَعة بِالأحجارِ البراقة ، و مَاركَاتِ

العُطوراتِ التي أخَذت من غُرفةِ مَلابسهَا خمسَةَ عَشَرَ رُفاً ، شَيء لا يُصَدق ..

كَيفَ حَدثَ هَذا .. أن تَكونِي في غُرفة جُدرانَها من يُتمٍ ، و تَهبطِي من السَماءِ إلى جَنة بِكافَةِ مُقتنَياتهَا ، لم تُغرني هَذه الجُدرانِ الوَرقِية ، و لا السِجَادِ الأحمرِ و لا الثُريات المُدلاة من سَقفِ كُلِ حُلمٍ ، و لا التُحفِ و لا الخَزفِ و لا السَتَائِر و لا حتى القَنَاطرِ المنقوشَة ..

أول خطوة مَشيتُ بهَا على سجَادِهم الذي لا يُشبهُ ذَاكَ الدَربِ البَسيط .. كُل شَيءٍ آنَ ذَاك كَانَ لهُ ميعَاد ..

فُتِحَ البَابُ الكَبير الذِي لا يُشبهُ أي بابٍ ..

و إنحنى جَميع من في القَصرِ من خدمٍ و حَشَمٍ ، و بصوتٍ وَاحدٍ نَطقَ جَميعهُم لَحنَ التِرحَابِ :

ـ أهَلاً و سَهلاً بِكِ في قَصركِ سَيدتي الصَغيرة ..

إبتسمت في وُجوهِهِم جَمِيعاً :

ـ شُكراً لَكُم جَمِيعاً أصدِقائِي ..

رَدوا لِي الإبتسَامة بِإبتسَامة باهِتة ، رُبمَا خَوفاً من السَيدة الكَبيرة ، لأنَ التَعَيلمات كَانت بِعدمِ الضَحكِ داخل القَصرِ ..

نَطقت السَيدة الكَبيرة :

ـ أووه يا صَغيرتي ، كَم أنتِ جَمِيلة ، يا لشَعركِ الجَذابِ و وجهكِ النَاصِع ، فِعلاً كمَا قَال لي كَافِين .. تُشبهينَ المَلائِكة .. يا مَلاكي الصَغير أنتِ ..

أنَا سَقط قَلبي من هَذهِ المَرأة التي لم أعتقَد بِأن تَكونَ بِهَذا القَدرِ منَ اللطَافة ..

كَانت أُنثى كَالملكِات تمَامًا .. أحببتُ تَرحِيبهَا بي :

إنحَنيتُ لَهَا ، إنهَا أولُ مَرة أنحنِي و أمسَكت أصَابِعِي أطرافَ فُستَاني و وَضعتُ رأسِي على الأرض :

ـ شُكراً سَيدتِي هَذا لُطفاً منِكِ أنْ أستَمعَ إلى هَذا الإطراء ، أنَا هِيكَا ينَاير ..

إبتَسمَ جمِيع من في القَصرِ ، الكُلُ تَسَاءل وَقتَهَا كَيفَ لِطفلة أمضَت حَياتهَا في مَيتمٍ أن تَعرف هَذهِ اللغة التي يَتداولهَا أصَحَاب الطَبقة المُنتَفخة بِالثَراءِ ! ..

إنَ الأدَب لا يَحتاج إلى قَومٍ يُشبِعونكَ ضَرباً كَي تَستَقِيم ، إنَ الأدبَ بِحَاجة إلى عِلمٍ و مَعرفَة ، و قَراءة و مُطَالعة ..

ضَحكتُ وَقتهَا بَصمتٍ و قُلتُ في جَوفي : و أيضَاً بِحَاجة إلى نَافِذة و قَصرٍ مُطلٍ على يُتمكَ و أدواتِ صَيدِكَ التَجسُسِية كَي تَكتَسِب الخِبرة ..

أُعجبت السَيدة الكَبيرة بلباقتي :

ـ أُووووه يا صَغيرتي ، كم أنتِ رَائعة ، لَقد فُقتِ تَوقُعَاتِي بلباقتكِ و حُسنِ تَربيتكِ ..

كُل شَيء أرَادَ أن يَحتضنني وَقتهَا ..

كلمات السيدة الكَبيرة الدَافئة التي دَخلت إلى خَلايا قَلبي ، و إبتسامَات الخَدمِ الرَقِيقة التي أسَعدتنِي بِطَرِيقة لا تُوصَف ، و عيون السَيدِ الصَغير التي تَكاد تَأكلنِي ، و سَعادة السَيد الكَبير الوَاسَعة بَرحَابة صَدرهِ الرَحيم ..

ـ صَغيرتي هِيلكَا .. هَذهِ جُوني خَادمتُكِ الخاصَة ..

إنحنت جُونِي ذَات الخَمس و عِشرين سَنة ، و رَحبت بِي :

ـ إنهُ من دَواعِي سُروري أن أكُونَ خَادمة للسَيدة الصَغيرة في هَذا القَصر ..

أُعجبتُ بِهَا و أَحببتُهَا :

ـ شُكراً لَكِ جُوني ، و أنَا هِيلكَا ، و أتمنى أن نَكونَ أصَدقاء ..

إقتَربتُ إليهَا ، و مَددتُ يَدِي كي أصَافحَهَا ، و لَكنَّ جُوني إحمرَ وجهها ، و نَظَرت إلى السَيدة الكَبيرة ، و لَكن السيدة الكَبيرة إبتَسمت و هَزت برأسهَا ، أي أن صَافحِيها ، عَرفتُ بَعدَ مُدة من الزَمنِ أنَ مُصَافَحةَ الخَدمِ و الحَدِيثِ مَعهُم ممنُوع ..

صَافَحتني بَعد أن أَخذت عَلامَة المُوافَقة من الَسيدة الكَبيرة ، و سُررتُ لأنَني كَسرتُ أولَ قَاعِدة من قَواعدِ القَصرِ ..

الخُروج عن المَألوف .. أو الخُروج من عَباءة النفاق التي أردت بكثيرٍ من أربابِ القُلوب ..

كَانَ القَصرُ شَهي جداً ..

و كَانَت طَلَبَاتِي لا تُرفَض ، مَع أنَ مُتَطلباتِي كَانت بِالنِسَبة لهُم صَغيرة جداً ..

أول طَلبٍ لي بِأن أكتُبَ في الصُحفِ الأسبوعِية التي تَصدرُ في هَذا الوَطن ، فَلقد كَانت الأعمدة تُكتَب و تُقَرأُ بنهمٍ من كَافَةِ النَاس ، فَالكل كانَ يتساءل من هَذهِ الكَاتبة العملاقة ، و لم يَعلموا بِأنَ من تَكتُب هي طفلة حِبرُهَا يُتم ، و أورَاقهَا بحث ..

كَان كافين لَطيفاً جِداً ..

أحبَني بصمتٍ و كَانَ دَائمَاً يَقومُ على رَاحتِي هُو و من في القَصرِ ، بَعدَ عَامٍ كَامِلٍ في هَذا القَصر كُنتُ شُغلهُم الشَاغِل .. أحبَ كافين أن يُقدمَ لي هَدِية بِأولِ عِيد لميلادِي في قَصرهم ..

كَانَ أولَ شَرطٍ لي أن يَحتَفل مَعي جَمِيعَ الخَدمِ ، لأنَني كُنتُ أراهَم عائلتي ، أعرفَهم جَمِيعَهُم ، أحَفظُ أسمَاءهم ، أُمَازحهم بينَ كُلِ فينة و فينة ، حَديقة القَصرِ كَانت مَكَاناً للعَبِ مَعهُم في كُل فَصلٍ ، كُنتُ أجتمع مع الخَدمِ و نَلعبُ بالثُلوجِ ..

كُنتُ أشعر بِالسعَادة عندمَا أراهُم يَضَحكون ، زَادَ سُرور السَيدة الكَبيرة بهَذا التَغيُر بالقَصرِ ، حَتى يوماً من الأيام نَزلت و لَعِبت بِالثَلج مَعنا ..

لَقَد صُدِمَ جميع من في القَصرِ ، عندما شَاهدوا السيدة الكَبيرة تَلعبُ مَعهُم بالثلج ، و حتى السيد الكَبير شاركنَا عِدةَ مراتٍ ، قَالت لِي ذَاتَ عَشَاء :

ـ شُكراً لَكِ إبنَتِي هِيلكَا ، لَقد حَلت في قَصرنَا السَعادة عندما تَخطى قلبَكِ هذا المكان ، أنَا مَسرورة جِداً بِكِ ..

جَاء عيد ميلادي ، كَانت لَيلة رَأس السَنة مُشَتعلة بالزينة ، و كَانت شَجرة العيد التي تَتوسط القَصر أطول شَجرة وُضعت في فيينَا ..

الكُل كَانَ مَشَغولاً وَقتها بتَحضيرِ الحَلويات ، الجَميع مُنهَمك بتجهيز الإحتفال ، أعطاني كَافين بِطَاقَاتِ دَعوة و قال :

ـ عَليكِ دَعوة من أحبَبتِ ، هَذا عيد ميلادكِ ..

فَرحتُ وَقتهَا :

ـ أحَقاً يَا كَافِين ! ..

بادلني فَرحتي ذَاكَ الفَتى الذي أحبني :

ـ نَعم .. أنتِ سَيدة الحَفلِ ، و هَكَذا طَلب مني أبي و أُمي .. لن يَحضُرَ إلا من تُرِيدِينَ أنتِ ..

ألقيتُ بِنفسِي بَينَ ذراعيه و أُقبلهُ ، و لَكنهُ سَقطَ وَجههُ بالحُمرة من الخَجلِ ، لم يَتوقع بأن أُقبلهُ ، لأنَني أنَا الفتَاة النَاضِجة كَمَا يَعتقدون :

ـ شُكراً لَك كافين ، أنَا أُحبُكَ جِداً ..

يا إلَهِي لو رَأيت كَافين كَم زَادَ إحمرار وجهه ، هُوَ الذي لم يعرف الحُب إلا معي أنَا :

ـ سَوف أدعو جَميع الخَدم في القَصرِ و جميع الأساتذة الذينَ تَعبوا على تَعليمي في السَنة الفَائتة ، و أيضَاً جميع الأيتَام في الدَارِ المُقابِلة لنَا ، و حبيبتي الأُم سبينَا ، و جَمِيع الأُمهَاتِ في دَارِ الأيتَامِ و حَتى من كَانَ يَرتاد كَنِيسَة الدَار من مُشَردين و ضُعفاء و مَساكين ..

سَعمت بَهَذا الأمر السَيدة الكَبيرة ، و سُرت بهَذهِ الفِكرة حَيثُ قَالت لي قَبل هَذا الإحتِفال بِيوم :

ـ و هَل أنَا مَدعوة ..

سَقطت دَمعتي حينهَا ، و قُمتُ بِإحتضانها :

ـ أنتِ سَيدة الحَفلِ ، أنتِ أُمي ..

أول مَرة منذُ أن دَخلتُ هَذا القَصر تَسمعُ منِي هَذهِ الكَلمة : أُمي .. كَانت تنتظرُهَا منذُ زَمنٍ طَويل ..

شَعرت السَيدة الكَبيرة بِالسعادة لأنَها قَطعت شَوطاً كَبيراً من الحُبِ، و إستَطاعت أن تَدخُل قَلبي بِكُلِ سُهولة .. هَذا طَبعاً بِحَاجة إلى بَسَاطة و تَواضُع ..

لَيسَ من السَهل دُخول قُلوب الآخرين .. إلا باللين و كَسرِ الجبين و تَصغير خَدكَ للناسِ ..

الحُب لَيسَ بحَاجة لمَالٍ و قُصور ، و لا ذَهبٍ و لا خَدمٍ و لا حَشَمٍ.. إنهُ بِحَاجة للإنصَافِ و الإحترامِ حَتى يَدوم ..

كَانَ اليَوم المَشهود .. ليلة رَأس السَنة .. أول عَيدٍ لِمِيلادِي في القَصر ، الجَمِيع هُنا ، لم يَتخلف أحد ، إصطفَ أطفَال المَيتم جمِيعاً بعد أن أطفِئت الشُموعِ الخمسَةَ عَشر ، و غَنوا جمِيعاً هَدِيةَ العَيدِ ، كُنتُ أبحَث عن سَيدة أكياس الطَحين ، تلكَ الأُم التِي ألقت بِي على مَهبِ هَذا العَالم المُنَافِق ..

أَنا مُمتنة للحَياة لأنهَا أرسَلت لِي عَائلة قُلوبُهم أكبَر من مَقاسِ مَشَاعِري ..

بَعد أن غَنوا و قَدموا لِي الهَدَايا ، و أكلوا الكَعك و شَربوا الشَاي حَولَ شَجرةِ العَيدِ الكَبيرة ، طَلبَ مني السَيد الصَغير أن يُعَقد وِشَاح على عَينَي تَأهُباً لِمُفاجأة ، أعدهَا هُوَ ..

سِرتُ مَعصُوبةِ العَينَين خَلفهُ ، و جَميع من أتَى على الحَفلِ سَاروا خَلفي ، عَرفتُ بِأنَ الهَدِية غَير مَنقولة ، و يَصعُب على الخَدمِ حَملها ، سَمعتُ صَوت بَابٍ يُفتح ، و حُلَّ الوِشَاح ..

يا إلهَي ..

إنهَا المَكتبة التي إختليتُ بهَا ستينَ سَنة ..

المَكتبة التي أهدني إياهَا زوجي الراحل : كافين جُونس ..

لن أنسَاهُ .. نعم لَقد تَزوجنَا ، و لم نُنجب أولاداً أبداً ، كُل الإطباء قَالوا بأنَ السَيد كافين لا يَستَطيع الإنجَاب ، و أنَا عَزَّ عَليَّ فراقهُ ، إنهُ زَوجي و حَبيبي و إبني و جَيمع عَائِلتي ..

منذُ أن تُوفي جَمِيع من في القَصرِ ..

و أنَا أستَمعُ إليهم ، إلى ضحكاتهم ، إلى مَلامحهم ، إلى أحاديثهم ، إلى لعبهم ، كُل يَومٍ عندمَا أستَيقظ من النَومِ أصواتهم من بَعيد تَقول لي :

ـ إشتقنا لكِ ، متى سَنلتقي !! ..

كَل يوم تَتَكرر دَعوتهُم لِي أن تعجلي ، فإنَ القَلب لا يُحبُ المُتأخرين ..

حَانَ الوَقت لألحقَ بِهم ..

إنهَا لَيلة رَأس السَنة ، عِيد مِيلادِي الخَمسَة و سَبعِين

هَل جُهزت العَربة يا إيفا ..

ـ سَيدتي أرجوكِ أن تَبقي في القَصر ، الطَقسُ بَارد جِداً في الخَارِج ، و أخَاف أن تُؤذِيكِ العَاصِفة الثَلجِية التي حَلت بِالمَدِينة..

جُهَزت العَربة و صَعدت السَيدة هِيلكَا ينَاير مع كَلبهَا حتى أوصَلوهَا إلى بَابِ الميتم ..

إنهُ ذَاتِ المَكانِ الذِي وُجدت فيهِ ..

جَميع الخَدم كَانوا حَولهَا ..

وَقفت السَيدة الكَبيرة هِيلكا ينَاير تَبكي بِشدة ..

على زَمنٍ ضَاعَ بِلا أمٍ و لا عَائلة ..

دُقت أجراس الكَنائس في العاصمة فِيينَا بحلولِ العَامِ الجَدِيد .. و سَقطت السيدة هيلكَا في المَكَان الذِي وجدت فِيهِ ..

فَارقت لَحظتهَا الحَياة ..

و دُفنَت أمَامَ بَاب المَيتمِ في ثانِي يَومٍ من السَنة الجَدِيدة ، كُتبَ على ضَريحها :

هُنَا يَنَامُ مَلاك طَاهر ، كَانَ يَبحثُ عن أُمهِ خمسة و سَبعين عَاماً ، إنهَا السَيدة العَظِيمة و الكَاتبة العملاقة ، الحَاصِلة على جَائِزة نُوبل للأدب ، الدكتورة :

هيلكَا يناير ..

أتمَمتُ رِواية :

هَيلكَا يَنَاير

في بَلَدِ الحُرِية و الدِيمُقرَاطِية : النَمسا ، في عَاصِمَةِ البِيانو و الكَمنجَة : فيينا ،

في مَقهى J.HORNIG ، في الحي السَابع ..

السَاعة : 00 : 02 ، ظُهراً بِتوقِيتِ العَودة نِهَايةِ العَامِ الجمَيل ..

مِن تَارِيخ : 16/ دِيسَمبر / 2017.